

أبو بكر الطرطوشي

العالم الزاهد الشاعر

تأليف

الدكتور جمال الدين الشيال

أبو بكر الطرطوشى

محمد بن الوليد

٤٥٠ - ٥٢٠ هـ = ١٠٥٨ - ١١٢٦ م

العالم الزاهد الشائر

((اذا عرض لك امران - امر دنيا
واخرى - فبادر بامر الاخرى يحصل لك امر
الدنيا والاخرى)) .

أبو بكر الطرطوشى

((ان الرعية اذا قدرت على أن تقول قدرت
على أن تفعل ، فاجتهد ألا تقول تسلم من أن
تفعل)) .

أبو بكر الطرطوشى

الباب الأول

نشأته الأولى وأسرته

(أ) دراسته الأولى على أبي الوليد الباجي •

(ب) أسرته •

(١) دراسته الأولى على أبي الوليد الباجي

هو أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان ابن أيوب القرشي الفهري الطرطوشي ، المشهور بابن أبي رندقة .

ولد في سنة ٤٥٠ هـ أو ٤٥١ هـ في مدينة طرطوشة ، واليها

ينسب /

وطرطوشة - كما وصفها ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان - مدينة كبيرة من مدن الأندلس ، تقوم على سفح جبل الى الشرق من بلنسية وقرطبة ، بينها وبين البحر عشرون ميلا ، وهي مدينة منيعة يحيط بها سور من الصخر حصين بناه بنو أمية ، وللبيور أربعة أبواب ملبسة كلها بالحديد ، وبها دار لصناعة السفن ، ففي المدينة وعلى جبالها ينبت شجر الصنوبر الذي لا يوجد له نظير في الطول والغلظ ، ولا يفعل فيه السوس ما يفعله في غيره من الخشب ، ومنه تتخذ صواري السفن .

وكانت طرطوشة الى هذا مدينة تجارية عظيمة ، بها أسواق وعقارات وضياع ، وسوقها في الربض القبلي جامعة لكل صناعة ومتجر ، وكان بها جامع كبير به خمس بلاطات ، وله رحبة واسعة ، بنى سنة ٣٤٥ هـ ، كما كان بها أربعة حمامات .

في هذه المدينة الأندلسية الكبيرة نشأ فقيها وعالما أبو بكر الطرطوشي ، وفيها درج ينعم بجمالها الطبيعي اللهم ، فالمدينة تحتضنها الجبال الشاهقة ، تغطيها أشجار الصنوبر الفارعة السامقة ، وتطل من بعيد على البحر الأبيض المتوسط بأواجه الصاخبة حيناً ، الهادئة المتهادية حيناً آخر .

وفي مسجد طرطوشة الكبير تلقى أبو بكر محمد بن الوليد علومه الأولى ، ولما شب عن الطوق رحل الى مدن الأندلس الكبيرة الأخرى

يستزيد من .. فذهب الى مدينة سرقسطة ، واتصل بكبير علمائها في ذلك .. القاضي ابي الوليد الباجي ، وأخذ عنه مسائل الخلاف ، وسمع منه ، وأجاز له .

وأبو الوليد الباجي هو شيخ الأندلس وعالمها في ذلك الوقت دون منازع ، وخاصة بعد وفاة نده ومنافسه ابن حزم ، فاليه كانت تشد الرحال ، والى حلقاته كانت تفد جموع الطلاب من مشارق الأندلس ومغاربها ، ويبدو أن الطرطوشي بدأ يتلمذ على الباجي وهو في سن العشرين أو نحوها ، أى حوالي سنة ٤٧٠ هـ ، لأن ابا الوليد الباجي توفي سنة ٤٧٤ هـ .

وتجمع المراجع كذلك على أن الطرطوشي قرأ الفرائض والحساب بوطنه ، وان كانت لا تذكر الشيوخ الذين أخذ عنهم هذين العلمين .

وانفرد المقرئ في كتابه « نفع الطيب » بقوله ان الطرطوشي قرأ الأدب على ابي محمد بن حزم بمدينة اشبيلية ، ولسنا نميل الى تصديق المقرئ في قوله هذا ، لأن ابن حزم توفي سنة ٥٦٦ هـ ولم يكن الطرطوشي في هذه السنة قد جاوز الخامسة أو السادسة من عمره ، ولا يعقل أن يرتحل الطرطوشي في هذه السن الصغيرة الى اشبيلية ، وان يتلمذ على ابن حزم ، ويأخذ عنه الأدب أو يفقهه ، وقد يكون قرأ كتبه في الأدب بعد ذلك بنفسه ، أو على واحد من تلاميذ ابن حزم ، ومن هنا ذكر هو أو ذكر عنه أنه تتلمذ على ابن حزم في الأدب .

(ب) أسرته

ولسنا نعرف شيئاً عن أسرة فقيهما ابي بكر الطرطوشي ، فان المراجع التي أرخت له لم تذكر حرفاً واحداً عن هذه الأسرة :

هل كانت هذه الأسرة غنية فنقول انه نشأ في بجموحة من العيش ؟

أو هل كانت فقيرة فنقول انه ذاق مرارة العوز منذ طفولته
الأولى ؟

هل كان اهلوه ذوى جاه وسلطان ؟
هل كانوا من المشتغلين بالتجارة ، وطرطوشة كما رأينا مدينة
تجارية ؟

هل كانوا من رجال العلم ولهذا نشأ فقيها عالما ؟
هل كانوا رجال حرب ، والأندلس كانت تضطرم في ذلك الوقت
بالفتن وتنتهبها الانقسامات ؟

لا نستطيع في الحقيقة أن نجيب على هذه الأسئلة الا استنتاجا ،
فان الطرطوشى يروى في كتابه « سراج الملوك » قصة واحدة عن فرد
واحد من أفراد أسرته ، نفهم من هذه القصة أن أسرة والدته كانت
من سرقسطة ، ولعل هذا يفسر لم اتجه في رحلته العلمية الأولى
الى هذه المدينة ؛ ونفهم منها كذلك أن بعض أفراد هذه الأسرة
كانوا من رجال الحرب الشجعان البرزين ، فهذه القصة تتحدث
عن الشجاعة الخارقة لرجل اسمه ابو الوليد بن فتحون ، كان خلا
لوالدة الطرطوشى .

ولنستمع الى الطرطوشى نفسه يروى هذه القصة ، قال :

« كان بسرقسطة فارس يقال له ابن فتحون ، وكان
يناسبنى فيقع خال والدتى ، وكان أشجع العرب
والعجم ، وكان المستعين ابو المقتدر يرى له ذلك
ويعظمه ، وكان يجرى عليه في كل عطية خمسمائة
دينار ، وكانت النصرانية بأسرها قد عرفت مكانه ،
وهابت لقاءه ، فيحكى أن الرومى كان اذا سقى فرسه
فلم يشرب يقول له : اشرب ، هل ابن فتحون رأيت
في الماء ؟ !

فحسده نظراؤه على كثرة العطاء ومنزلته من

السلطان ، فأوغروا به صدر المستعين ، فمنعه أياما ؛
ثم ان المستعين أنشأ غزوة إلى بلاد الروم ، فتوافقت
المسلمون والمشركون صفوفا ، ثم برز عالج الى وسط
الميدان ينادى : هل من مبارز ؟ فخرج اليه فارس من
المسلمين ، فتجاولا ساعة ، فقتله الرومى ، وصاح
الكفار سرورا ، وانكسرت نفوس المسلمين .

وجعل الرومى يكر بين الصفيين وينادى : هل من
اثنين لواحد ؟ فخرج اليه فارس من المسلمين ، فقتله
الرومى ، فصاح الكفار سرورا ، وانكسرت نفوس
المسلمين .

وجعل يجول بين الصفيين ويقول : ثلاثة لواحد ؟
فلم يستجر أحد من المسلمين أن يخرج اليه ، وبقي
الناس في حيرة .

ف قيل للسلطان : مالها الا أبو الوليد بن فتحون ؛
فدعاه وتلطف به ، وقال له :

— أما ترى ما يصنع هذا العالج ؟

فقال : هو بعينى .

فقال : فما الحيلة فيه ؟

فقال أبو الوليد : فماذا تريد ؟

فقال : أكف المسلمين شره .

فقال : الساعة يكون ذلك ان شاء الله تعالى .

فليس قميص كتان ، واستوى على سرجه
بلا سلاح ، وأخذ بيده سوطا طويل الطرف ، وفي طرفه
عقدة معقودة ، ثم برز اليه ، فعجب منه النصرانى ،
ثم حمل كل واحد منهما على صاحبه ، فلم تخط طعنة
النصرانى سرج ابن فتحون ، واذا ابن فتحون متعلق

برقبة الفرس ، ونزل الى الأرض لا شيء منه في
السرّج ، ثم طفر على سرجه ، وحمل عليه ، وضربه
بالسوط في عنقه ، فالتوى على عنقه ، فجذبه بيده من
السرّج ، فاقتلعه عن سرجه ، وجاء به يجره ، فألقاه
بين يدي المستعين .

فعلم المستعين أنه كان قد أخطأ في صنعه معه ،
فأكرمه ، وردّه الى أحسن أحواله .

فوالدة الطرطوشى كانت اذن من أسرة ذات جاه في سرقسطة ،
يمتحن أحد رجالها فن الحرب والقتال ، ويبرز في هذا الفن
فيتفوق على أقرانه جميعا حتى يقربه السلطان اليه ، ويفدق عليه
العطايا ، ويعتز بشجاعته ، فيلجأ اليه في الللمات .

أما والد الطرطوشى فاسمه الوليد ، وان كانت المراجع تذكر
أن أبا بكر الإبن كان يعرف « بابن أبى رندقة » (١) .

فهل كانت « أبو رندقة » كنية لأبيه ؟ وما معناها الذى تذكره
المراجع أنها لفظة فرنجية ، فاذا صح أنها كانت كنية لأبيه ، فهل
كان أبوه ينحدر اذن من أصل اسباني مسيحي ؟

أغلب الظن أنه لم يكن كذلك ، فان نسبه فيما وصل اليه
واضح ، وينتهى الى قريش ، فهو محمد بن الوليد بن محمد
ابن خلف بن سليمان بن أيوب القرشى الفهرى ، فهو من أصل

(١) هي « رندقة » بضم الراء عند ابن فرحون ، و « رندقة » بفتح الراء
عند ابن خلكان والقرى ، وقد فسرها ابن خلكان فقال انها كلمة فرنجية معناها
تعال هنا ، وقد حاول المؤرخ الاسبانى Pons Boigues في كتابه (Ensayo
- Bio - Bibliografico sobre las Historiadores Y geografos esrabigo -
Espanoles. madrid 1898) أن يبرر تفسير ابن خلكان ، فقال ان الكلمة
مكونة من لفظين ، الاول بمعنى تعال أى أقبل وهى مأخوذة من الفعل الفرنسى
Rendre ، والثانية (هنا) وهى بالاسبانية (aç) ، فاذا جمعا صار (Rand-acà)

عربي واضح ، ولعله كنى بهذه الكنية الفرنجية في حياته لآمر
لا نعرفه يتصل بالمعنى الحقيقى لهذا اللفظ .

أما مهنته فلسنا نعرف عنها شيئاً كذلك ، ولكنى أرجح أنه
لم يكن يمتحن التجارة أو الصناعة والا لنشأ ابنه على إحدى هاتين
الحرفتين كما كانت العادة الغالبة بين سكان المدن الكبرى في العصور
الوسطى .

وأبو بكر الطرطوشى نفسه يصرح أنه لم يكن يفقه شيئاً في
التجارة ، وأنه لم يحترف حرفة ما ، فإن هذه كانت كبرى مشاكله
عندما فكر في الرحلة إلى المشرق ، يقول في كتابه « سراج
الملوك » :

« وأما أنا ، فلما هممت بالرحيل من بلدى إلى
المشرق في طلب العلم كنت لا أعرف التجارة ، ولا لى
حرفة أرجع إليها ، فجزعت من الخروج ، وكنت
أقول : « إذا ذهب نفقتى فماذا أفعل ؟ » .

وكان أقوى الآمال في نفسى أن أحفظ البساتين
بالأجرة ، وأدرس العلم بالليل ، ثم استخرت الله
فرحلت ، وكانت معى نفقة وافرة في هميان على
وسطى » .

فالذى نرجحه أن والده كان عالماً أو من المشتغلين بالعلم ، وأنه
لهذا وجه ابنه هذه الوجهة التى يرضاها ، وأن أسرته كانت على
شئ من الثراء ، ولهذا استطاع أن يعيش في وطنه حتى الخامسة
والعشرين من عمره وهو عائلة على أهله ، يطلب العلم وهم يكفونه
مؤونة السعى وراء الرزق ، ولهذا استطاع أيضاً أن يزود قبل
خروجه للرحلة بنفقة وافرة - كما يقول .

ولكن الذى كان يشغل باله أن تنفذ هذه النفقة أو تفقد ،
وهو لا يعرف حرفة يرتزق منها ، فهده تفكيره ان حدث له شئ

من هذا أن يعمل حارسا للبساتين ، ليفرغ في الليل لدراسة العلم ، ثم استخار الله وتوكل عليه وبدأ رحلته . وشاق الطرطوشي ما كان يشوق رصفاءه من فقهاء الأندلس ، شاقته الرحلة الى المشرق للحج ولطلب العلم ، أو لعله أعجب بسيرة أستاذه أبي الوليد الباجي ، فأراد أن ينهج نهجه ، فقد رحل الباجي من قبل الى المشرق ، وحج ومكث في مكة ثلاث سنوات ، ثم زار مدن الشرق الكبرى : بغداد والموصل ودمشق ، واتصل بأعلامها وعلمائها ، وأخذ عنهم ، وأخذوا عنه ، ورجع الى وطنه بعد ثلاثة عشر عاما ، حصل في ابانها علما كثيرا ، وأفاد تجربة وقدرة على الجدل والمناقشة ، فآثار في محافل العلم الأندلسية ضجة كبرى .

فلم لا يحتذى التلميذ حذو أستاذه ؟

فلعله يبلغ من المجد العلمي ما بلغ أستاذه .

الباب الثاني

الطرطوشي في المشرق

(أ) في مكة :

(ب) في العراق :

- ١ - الطرطوشي والمدرسة النظامية في بغداد .
- ٢ - أساتذة الطرطوشي في بغداد .
- ٣ - اتجاه الطرطوشي الى التصوف منذ كان في بغداد .

(ج) في الشام :

- ١ - في بيت المقدس وجبل لبنان .
- ٢ - في انطاكية .

الطرطوشي في المشرق

(١) في مكة

في سنة ٤٧٦ هـ غادر الطرطوشي وطنه - وهو غض الشباب في الخامسة والعشرين من عمره - ليبدأ رحلته الى الشرق . ونحن لا نعرف شيئاً عن المرحلة الأولى من رحلته هذه . فلا نعرف مثلاً هل سلك طريق البحر أو طريق البر ، ولا نعرف أى الأقطار أو البلدان زار في طريقه .

ولكننا نلقاه أول ما نلقاه في مكة وقد استقر بها قليلاً بعد أداء فريضة الحج ، يلقي بعض الدروس ، فقد روى مواطن من مواطنيه - زامله في شبابه الأول ، وتلمذ معه في سرقسطة على أبى الوليد الباجى - أنه رآه في مكة ، واستمع الى بعض دروسه هناك . هذا المواطن هو القاضى أبو على الحسين بن محمد بن فرو الصدفى ، قال :

« صحبته عند الباجى ، ولقيته بمكة ، وأخذت

عنه أكثر السنن لأبى داود عن التستري » .

ولم يمكث أبو بكر الطرطوشي في مكة طويلاً ، بل استأنف رحلته ، واتجه الى بغداد ، فان مواطنه وزميله أبا على الحسين ابن محمد الصدفى - الذى قابله في مكة - يستطرد في حديثه عنه فيقول :

« ثم دخل بغداد وأنا بها » .

(ب) في بغداد

١ - الطروشى والمدرسة النظامية :

كانت بغداد في ذلك الوقت مركزاً من أكبر مراكز العلم في العالم الاسلامى ، وكانت محط رحال العلماء ، يفتدون اليها من أقصى المشرق ومن أقصى المغرب ، فكان لابى بكر الطروشى - وقد رضيت نفسه بأداء فريضة الحج والمجاورة في مكة وقتاً ما - أن يرحل اليها ليستكمل دراسته ، ويتصل بعلمائها الأعلام ، ويتلمذ عليهم ، ويأخذ عنهم .

وكان يلى أمور المشرق في ذلك الوقت نظام الملك - وزير الملكين السلجوقيين : ألب أرسلان وملك شاه - ، وهو وزير عالم يجب العلم والعلماء ، ويقربهم اليه ، ويفدق عليهم العطايا .

وقد شهد الطروشى أثناء مقامه في بغداد آثار هذه السياسة العلمية الحصيفة التى اصطنعها نظام الملك لنفسه وللدولة ، وأشاد بذكرها في كتابه « سراج الملوك » ، قال :

« وذلك انى لما كنت بالعراق ، وكان الوزير نظام الملك قد وزر لأبى الفتح - ملك الترك - ابن ألب أرسلان ، وكان قد وزر لأبيه من قبله ، فقام بدولتهما أحسن قيام ، فشد أركانهما ، وشد بنيانهما ، واستمال الأعداء ، ووالى الأولياء ، واستعمل الكفاة ، وعم احسانه العدو والصديق ، والبغيض والحبيب ، والبعيد والقريب ، حتى ألقى الملك بجرانه ، وذل الخلق لسلطانه .

وكان الذى مهد له ذلك باذن الله تعالى وتوفيقه ، أنه أقبل بكلية على مراعاة رجال الدين ، فبنى دور العلم للفقهاء ، وأنشأ المدارس للعلماء ، وأسس الرباطات للعباد والزهاد وأهل الصلاح والفقراء ، ثم أجرى لهم

الجرايات والكساوى والنفقات ، . . وعم بذلك أقطار مملكته ، فلم يكن من أوائل الشام - وهى بيت المقدس - الى سائر الشام الأعلى وديار بكر والعراقين ، وخراسان بأقطارها ، الى سمرقند من وراء نهر جيحون ، مسيرة زهاء مائة يوم ، حامل علم أو طالبه ، أو متعبد أو زاهد فى زاويته ، الا وكرامته شاملة له ، وسابغة عليه ، وكان الذى يخرج من بيوت أمواله فى هذه الأبواب ستمائة ألف دينار فى كل سنة .

وذكر الطرطوشى بعد أن تحدث عن هذه النهضة العلمية وآثارها فى تدعيم ملك السلاجقة أن بعض الوشاة وشوا بالوزير نظام الملك عند السلطان ملك شاه ، ليوغروا صدره ضده ، وقالوا : ان هذا المال الوفير الذى يصرف على الفقهاء والعلماء أولى به أن يصرف لتكوين جيش ضخم يهاجم به القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ويضمها الى ملكه ، وأخذ ملك شاه ببريق هذا الحديث الواشى ، واستدعى اليه وزيره نظام الملك ، ودار بين الرجلين حديث رائع يرويه الطرطوشى معجبا به فى كتابه « سراج الملوك » :

قال ملك شاه لوزيره :

« يا أبت : بلغنى أنك تخرج من بيوت الأموال كل سنة ستمائة ألف دينار الى من لا ينفعنا ولا يغنى عنا ؟ ! » .

فبكى نظام الملك وقال :

« يا بنى : أنا شيخ أعجمى ، لو نودى على فيمن يزيد لم أحفظ خمسة دنانير ، وأنت غلام تركى ، لو نودى عليك عساک تحفظ ثلاثين دينارا ، وأنت مشتغل بلذاتك ، منهمك فى شهواتك ، وأكثر ما يصعد الى الله تعالى معاصيك دون طاعتك .

وجيوشك الذين تعدهم للنواب إذا احتشدوا
وكافحوا عنك بسيف طوله ذراعان ، وقوس لا ينتهى
ممراته ثلاثمائة ذراع ، وهم مع ذلك مستغرقون فى
المعاصى والخمور والملاهى والندماء والطنبور .

وأنا أقمت لك جيشا يسمى جيش الليل ، إذا
نامت جيوشك ليلا قامت جيوش الليل على أقدامهم
صفوفا بين يدى ربهم ، فأرسلوا دموعهم ، وأطلقوا
بالدعاء ألسنتهم ، ومدوا الى الله أكفهم بالدعاء لك
ولجيشك ، فأنت وجيوشك فى خفارتهم تعيشون ،
وبدعائهم تبيتون ، وبركاتهم تمطرون وترزقون ، تمرق
سهامهم الى السماء السابعة بالدعاء والتضرع » .

قال الطرطوشى معلقا :

« فبكى أبو الفتوح الملك بكاء شديدا ثم قال :

– «شاباش يا أبت شاباش !! أكثر من هذا الجيش » .

فنظام الملك كان يرى اذن أن جيش الليل – جيش العلماء
والفهاء والصوفية – الذى يكونه ويفدق عليه العطاء ، له من
الضرورة قدر ما لجيش الدولة الآخر جيش الجنود والقواد ، وأن
دعاء جيش العلماء يتعاون مع سهام جيش الجنود فى تدعيم أركان
الدولة وتثبيت أركانها .

وأخص ما يذكر به نظام الملك فى التاريخ أنه منشىء المدارس
فى العالم الاسلامى ، فقد كانت المساجد الى عصره هى معاهد
العلم ، فيها تعقد حلقاته ودروسه ، فكان نظام الملك أول من أنشأ
معاهد مستقلة للتعليم ، يتفرغ فيها الطلاب للتعلم والمدرسون
للتدريس ، وأوقف الأوقاف الكثيرة ورتب المرتبات الوفيرة للصرف
عليها وعليهم ، وأسماها « المدارس » .

وحملت كل مدرسة منها اسمه ، فكانت تسمى « النظامية » ،
وكانت أكبرها وأشهرها « المدرسة النظامية » ببغداد التى بنيت

قبيل وصول فقيهما أبي بكر الطرطوشي الى بغداد بسنوات قليلة ، وقد شهد الطرطوشي نظامية بغداد وهي في أوج عظمتها ، وتلمذ بها ، ووصفها ، وذكر قصة بنائها في نص قيم نادر ، قال :

« ومن مناقب هذا الرجل (نظام الملك) وفضائله أن رجلا قصده يقال له « أبو سعيد الصوفي » فقال له :
- « يا خواجه : أنا أبنى لك مدرسة ببغداد مدينة السلام لا يكون في معمور الأرض مثلها ، يخلد بها ذكرك الى أن تقوم الساعة » .
- قال : « افعل » .

وكتب الى وكلائه في بغداد أن يمكنوه من الأموال . فابتاع (أبو سعيد الصوفي) قطعة على شاطئ دجلة ، وخط المدرسة النظامية ، وبنهاها أحسن بنيان ، وكتب عليها اسم نظام الملك ، وبنى حولها أسواقا تكون محبسة عليها ، وابتاع ضياعا وخانات وحمائم وأوقف عليها ، وكان ذلك في سنن عشر والخمسين وأربعمائة للهجرة » .

٢ - أساتذة الطرطوشي في بغداد :

كان أول من عين للتدريس في نظامية بغداد أبو نصر عبد السيد ابن محمد بن الصباغ .

ثم تولى منصب التدريس بها عدد من كبار الفقهاء الشافعية ، من أمثال أبي اسحاق الشيرازي ، وأبي سعد عبد الرحمن بن مأمون المتولي ، وأبي بكر محمد بن أحمد الشاشي ، وحجة الاسلام أبي حامد الفزالي .

ورغم أن أبا بكر الطرطوشي كان مالكي المذهب ، فقد تتلمذ على معظم هؤلاء الفقهاء الشافعية ، وعلى بعض فقهاء الحنابلة ، وقد نصت المراجع التي ترجمت له على أسماء هؤلاء الأساتذة الذين

أخذ عنهم الطرطوشي في بغداد ، قال الحميري في كتابه « صفة جزيرة الأندلس » :

« وسكن بغداد ، وتفقه على أبي بكر الشاشي ،
وسمع بها الحديث » .

وقال ياقوت في « معجم البلدان » :

« ودخل بغداد والبصرة ، فتفقه عند أبي بكر الشاشي ، وأبي سعد بن المتولي ، وأبي حمد الجرجاني ، أئمة الشافعية ، ولقى القاضي أبا عبد الله الدامغاني .. وسمع ببغداد من أبي محمد التميمي الحنبلي وغيرهم » .

دخل أبو بكر الطرطوشي بغداد أذن وهي تنتعش بالعلماء الإعلام ، وتضج بالنشاط العلمي المتشعب النواحي ، والمدرسة النظامية هي واسطة العقد ومركز هذا النشاط ، وكبار العلماء يتنافسون في سبيل الوصول الى كرسي الأستاذية بها ، ولكل أستاذ تلاميذه الذين يتعصبون له ، ويفخرون بالتلمذ عليه .

روى ابن خلكان أن المدرسة النظامية بدىء في بنائها سنة ٤٥٧ هـ ، وفتحت يوم السبت عاشر ذي القعدة من سنة ٤٥٩ هـ ، وكان نظام الملك قد أصدر أمره بتعيين كبير فقهاء الشافعية في بغداد أبي اسحاق الشيرازي للتدريس بها ، واجتمع الناس يوم الافتتاح للاستماع الى أول درس يلقيه ، ولكن أبا اسحاق - لأمر ما - اختفى في ذلك اليوم ولم يحضر الى المدرسة ، فعين مكانه عالم آخر لا يقل عنه مكانة هو أبو نصر ابن الصباغ ، وبعد أيام ظهر الشيخ أبو اسحاق في مسجده ، وكان أصحابه وتلاميذه قد ألهم موقفه كما ألهم أن يولى منافسه ابن الصباغ للتدريس في النظامية ، فأعلنوا غضبهم من شيخهم ، وانفضوا عن دروسه احتجاجا ، ثم راسلوه ، وما زالوا به يقنعونه

أن يقبل وظيفة الأستاذية بالنظامية ، وهددوه أن ينفضوا من حوله
وينضموا الى ابن الصباغ ان هو أصر على موقفه ، فاضطر أن يذعن
لرأيهم ، وقبل المنصب ، وبدأ التدريس في النظامية ، وعزل
ابن الصباغ بعد أن درس عشرين يوما .

كان رجال هذه المدرسة جميعا الذين تعاقبوا على التدريس بها
والذين أخذ عنهم الطرطوشي من العلماء البارزين ، تجمع المصادر
على وصفهم بالفضل والعلم والتقوى والقدرة على التأليف والانتاج .
وأبو اسحاق الشيرازي عندهم امام وقته ببغداد ، وروى
الطرطوشي نفسه شعرا قاله غيره يصف الشيرازي بالذكاء المتوقد .
قال ابن خلكان في « وفيات الأعيان » :

« قال الشيخ أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي :

كان ببغداد شاعر مفلق يقال له عاصم ، فقال يمدح
الشيخ أبا اسحاق - قدس الله سره :

تراد من الذكاء نحيف جسم
عليه من توقده دليل

إذا كان الفتى ضخم المعالي

فليس يضيره الجسم النحيل

أما أبو بكر الشاشي فتصفه المراجع بأنه كان فخر الاسلام ،
فقيه بغداد ، تتلمذ على أبي اسحاق الشيرازي ، ثم انتهت اليه
رياسة الطائفة الشافعية ، وله تصانيف حسنة ، وتعين في الفقه
بالعراق بعد أستاذه أبي اسحاق ، وتولى التدريس بالمدرسة
النظامية بمدينة بغداد سنة ٥٠٤ هـ .

ووصف أبو نصر بن الصباغ بأنه كان فقيه العراقيين في زمنه ،
وكان يضاهاى أبا اسحاق الشيرازي ، وكانت الرحلة اليه من
البلاد ، وكان ثقة حجة صالحا ، تولى التدريس بالنظامية ببغداد
أول ما فتحت ، ولما توفي أبو اسحاق الشيرازي أعيد للتدريس بها .

أما حجة الاسلام أبو حامد الغزالي فيصفه ابن خلكان بقوله :

« لم يكن للطائفة الشافعية آخر عصره مثله » .

والراجع أن الطرطوشى لم يتصل به ولم يأخذ عنه ، فقد عين الغزالي للتدريس في نظامية بغداد في سنة ٤٨٤ هـ بعد خروج الطرطوشى منها ، ولكننا سنعرف فيما بعد أن العالمين الكبيرين سيتقابلان معا في مدينة الاسكندرية ، وستنشأ بينهما خصومة علمية سيكون لها شأنها .

اندمج أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشى في هذه الحياة العلمية النشيطة ، واستمع الى هذه النخبة الممتازة من العلماء الأجلاء ، ولا بد أنه شارك فيها وأسهم في حلقاتها ، فانه يروى في بعض كتبه التى ألفها بعد خروجه من العراق شعرا كثيرا سمعه أثناء مقامه في بغداد والبصرة من بعض هؤلاء الشيوخ ، من أمثال أبى العباس الجرجاني ، وأبى محمد التميمى .

٣ - اتجاه الطرطوشى الى التصوف منذ كان في بغداد :

وهذا الشعر الذى يرويه أبو بكر الطرطوشى يعطينا صورة أخرى لهؤلاء العلماء الذين أخذ عنهم ، فهم كانوا في جملتهم - مع تزلعهم في الفقه والعلوم الدينية - من المتصوفة الذين يعتقدون أن الحياة الدنيا نعيم زائل ، والذين كانوا يفرغون لحياة كلها زهد وتكشف وعبادة وذكر لله ، وسنرى فيما بعد أن هذا النوع من الحياة الذى شاهده الطرطوشى في بغداد قد اثر فيه تأثيرا كبيرا ، فبدأ منذ ذلك الحين يأخذ نفسه به ، حتى عده من كتبوا عنه واحدا من المتصوفة الزاهدين .

كان هذا الشعر الذى سمعه من شيوخه العراقيين ، ورواه عنهم فيما بعد في كتابه « سراج الملوك » يضرب كله المثل بالأمم الغابرة ، وما بنت من قصور ، وما زينت من عمائر ، وكيف انتهى

كل هذا الزخرف الى زوال ، ويدعو الى اتخاذ الموعظة من هذا كله ، فهو يقول :

« انشدنى القاضى ابو العباس الجرجانى - رحمه الله - بالبصرة :

بالله ربك كم قصر مررت به

قد كان يعمر باللذات والطرب ؟ !

طارت عقاب المنايا فى جوانبه ،

فصاح من بعده بالويل والحرب

وانشدنى أيضا :

أيها الرافع البناء رويدا ،

لن تذود المنون عنك المباني

ان هذا البناء يبقى ، وتفنى ،

كل شىء أبقى من الانسان

وانشدنى بالبصرة :

ان كنت تسمو الى الدنيا وزينتها ،

فانظر الى ملك الأملاك قارون

زم الأمور فأعطته مقادتها ،

وسخر الناس بالتشديد واللين

حتى اذا ظن ان لا شىء غالبه

ومكنت قدمهاه اى تمكين

راحت عليه المنايا روحة تركت

ذا الملك والعز تحت الماء والطين

وروى الطرطوشى كذلك ان شيخه ابا محمد التميمى

أنشده ببغداد :

لمن أبني ؟ لمن اسم المطايا ؟

لمن أستأنف الشيء الجديد

إذا ما صار اخواني رفاتا ،

وصرت - لفقدهم - فردا وحيدا

أعابن معشرا لهم شـكول ،

وأشـكالي قد اعتنقوا اللحودا

وقد روى الطرطوشي في كتابه « سراج الملوك » حديثا آخر جرى بينه وبين أحد العراقيين يدل دلالة واضحة على أن هذه الموضوعات بالذات كانت مجال المناقشة دائما بينه وبين أنداده من علماء العراق : موضوعات الحياة الدنيا وقيمتها وزوالها ، والانسان وجهوده ومصيره ، والعبرة المأخوذة من هذا كله .

يروى الطرطوشي طرفا من إحدى هذه المناقشات فيقول :

« وها أنا (ذا) أحكى لك أمرا أصابني ، طيش عقلي وبلبل فكري ، وقطع نياط قلبي ، فلا يزال يراه حتى يواريني التراب ، وذلك أني كنت يوما بالعراق وأنا أشرب ماء ، فقال لي صاحب لي - وكان له عقل : - يا فلان : لعل هذا الكوز الذي تشرب فيه الماء ، لقد كان انسانا يوما من الدهر ، فمات فصار ترابا ، فاتفق للفخاري أن أخذ تراب القبر وضربه خزفا ، وشواه بالنار ، فانتظم كوزا كما ترى ، وصار آنية يمتهن ويستخدم بعد أن كان بشرا سويا يأكل ويشرب ، وينعم ويلذ ويطرب » .

هذه النظرة الفلسفية العميقة الى الانسان وحقيقته ومصيره :

كيف خلق ومم خلق ؟

وكيف ينتهي والى أين يصير ؟

وكيف تنتهي الحياة الى الموت ؟

ثم كيف تتجدد الحياة من الفناء .

هذه النظرة الفلسفية هزت كيان الطرطوشي هزا ، او على حد قوله هو : « طيشت عقلى وبلبلت فكرى وقطعت نياط قلبى » ، وأدرك ما وراء هذه اللفتة من حقيقة ، فاستطرد في حديثه يؤكدها ويحللها تحليلا يؤكد ايمانه بها ، قال :

« فاذا الذى قاله من الجائزات ، فان الانسان اذا مات عاد ترابا كما كان فى النشأة الأولى ، ثم قد يتفق أن يحفر لحده ويعجن بالماء ترابه ، فيتخذ منه آنية ، فتمتهن فى البيوت ، أو لبنة فتبنى فى الجدار ، وقد يجوز أن يفرس عند قبره شجرة فيستحيل تراب الانسان شجرة وورقا وثمره ، فترعى البهائم أوراقها ، ويأكل الانسان ثمرها ، فينبت منها لحمه ، وينشر منها عظمه ، أو تأكل تلك الثمرة الحشرات والبهائم ، فبينما كان يقات صار قوتا ، وبينما كان يأكل صار مأكولا ، ثم يعود فى بطن الانسان رجيعا فيقذف فى بيت الرحاضة ، أو بعرا ينبذ بالعراء ، ويجوز اذا حفر قبره أن تسفى الرياح ترابه ، فتتفرق أجزاءه فى بطون الأودية والتلول والوهاد » .

هذا الحديث الذى ألقى الى الطرطوشي أثناء مقامه فى بغداد ، وهذا التعليق الذى راح يحلل به الحديث ويؤكد فى كتابه « سراج الملوك » يذكرنا بقول الشاعر العربى أبى العلاء المعرى :

سر ان استطعت فى الفضاء رويدا

لا اختيالا على رفات العباد

خفت الوطأ ما أظن أديم الأرز

ض الا من هذه الأجساد

ويذكرنا بشاعر فارسى مجيد يدور كثير من شعره حول هذه

المعاني بالذات : تجدد الحياة ، وخروج الميت من الحي ، وانبثاق
الحي من الميت .

يذكرنا بالشاعر عمر الخيام ، فهو الذى يقول فى « رباعياته » :
قد كان هذا الدن صبا أسير

مثلى ، سبته مسدلات الشعور

وما يسد الابريق الا يسد

قد طوقت جيد حبيب عزيز

وهو الذى يقول - ويكاد يحيل قول البغدادي للطروشى

شعرا :

رايت خزافا رحاه تدور ،

يجد فى صوغ دنان الخمرور

كأنه يخلط فى طينها

جمجمة (الشاه) بساق الفقير

ومن العجيب أن الخيام كان معاصرا للطروشى ، ترى هل سمع

شعره هذا أو نقل اليه أثناء مقامه فى بغداد ، فتأثر به ، وبان هذا

الأثر فيما كتبه فيما بعد فى كتابه « سراج الملوك » .

هذا سؤال افتراضى أوحى به التشابه الغريب بين كلام

الطروشى وشعر الخيام ، ولا نستطيع الاجابة عليه الآن لقلة

النصوص التى تمدنا بها المراجع ، ولأن المعروف عن حياة الخيام

ما زال قليلا غير واضح المعالم .

انطلق اذن أبو بكر الطروشى يفكر فى هذه اللفتة الفلسفية

فيطيل التفكير ، ويحلل فيطيل التحليل ، وراح يعرض كل

الاحتمالات الممكنة التى قد ينتهى اليها الانسان بعد موته ، وراح

يكون لنفسه فلسفة خاصة ، بدأ يعتنقها منذ ذلك الحين ، ويصيف

حياته صياغة خاصة تتفق وهذه الفلسفة ، وهى فلسفة الزهد ،

والعزوف عن اللذات والشهوات ، والجرأة على كل كبير فى سبيل

الحق ، وفى سبيل تدعيم أوامر الله سبحانه وتعالى ، فهو ينظر

الى كل كبير بهذه النظرة التى لا ترى فيه قوته وسلطانه وجبروته ،

ولكنها ترى فيه قيمته ومصيره ، وأنه لن يكون بعد الموت الا كوزا
يشرب فيه الماء ، أو ما يشبه ذلك .

تبدو فلسفته هذه واضحة في الفقرة التي ختم بها حديثه
السالف حيث يقول :

« اليس في هذا ما أذهل العقول وطيش الحلوم
ومنع اللذات ، وهان عنده مفارقة الأهلين والمال ،
واللحوق بقلل الجبال ، والأنس بالوحوش حتى يأتى
أمر الله ؟

اليس في هذا ما صغر الدنيا وما فيها ؟
اليس في هذا ما حقر الملك عند من يعظمه ، والمال
عند من جمعه ؟

اليس في هذا ما زهد في اللذات وسلى عن
الشهوات ؟ » .

سيلتزم الطرطوشى اذن - منذ يغادر العراق وفيما يقبل من
ايامه - حياة الزهد والبعد عن مباهج الدنيا ، سيلتزم الزهد لا عبادة
وانما تفلسفا .

وقد زار الطرطوشى - أثناء مقامه في العراق - مدينة البصرة ،
وقضى فيها وقتا ، وتلمذ هناك على أبى على محمد بن أحمد
التستري ، ثم يم وجهه شطر قطر آخر هو الشام .

ولسنا نعلم على وجه التحديد كم سنة أقام الطرطوشى في
العراق ، ولكننا نستطيع أن نستنتج أنه لم يقم به طويلا ، فنحن
نعرف أن عددا كبيرا من شيوخه في العراق توفوا في المدة بين
سنتى ٤٧٨ و ٤٧٩ هـ .

فأبو سعد المتولى ، وأبو عبد الله الدامغانى توفيا سنة ٤٧٨ هـ .
وأبو على التستري توفى سنة ٤٧٩ هـ .

والطرطوشى بدأ رحلته من المغرب سنة ٤٧٦ هـ .
فلا بد اذن انه وصل العراق فى أواخر سنة ٤٧٧ هـ أو أوائل
سنة ٤٧٨ هـ ، وأنه غادرها سنة ٤٧٩ هـ أو سنة ٤٨٠ هـ ، وقد
بلغ الثلاثين من عمره .

(ج) فى الشام

١ - فى بيت المقدس وجبل لبنان :

دخل أبو بكر الطرطوشى الشام بعد أن أتم دراسته ، وبعد أن
حصل من العلوم ما حصل ، وبعد أن بلغ من النضج الفكرى درجة
تؤهله للتدريس لينفع الناس بعلمه ، وبعد أن كون لنفسه فلسفة
خاصة قوامها الزهد والسعى للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

فالسمة الظاهرة التى تميز أبا بكر الطرطوشى منذ دخل الشام
الى آخر حياته أنه عالم زاهد ، بل لعله أقرب الى الحقيقة أن
نقول زاهد عالم ، فان ابن فرحون يروى فى كتابه « الديباج
المذهب » أن بعض الجلة من الصالحين كان يقول :

« الذى عند أبى بكر الطرطوشى من العلم هو الذى

عند الناس ، والذى عنده مما ليس مثله عند غيره
دينه » .

وقال الحميرى فى كتابه « صفة جزيرة الأندلس » :

« وزهده أكثر من علمه » .

والذى تجمع عليه المراجع التى ترجمت له أنه قضى الفترة التى
عاشها فى الشام يعلم الناس ، فأقبلوا عليه ، وأحبوه ، وأفادوا من
علمه ، فعلا اسمه ، وبعد صيته ، وأنه عاش هناك متقشفا عابدا
زاهدا منقبضا عن الناس ، إذا أكل أكل فى شقف من الفخار ، وكان
أصحاب الحكم والسلطان يسعون اليه والى بره ، ولكنه كان
ينصرف عنهم ، ويشتد عليهم فى القول وأساءة النصيحة .

قال ابن فرحون :

« وسكن الشام مدة ودرس بها ، ولازم الانقباض والجماعة وبعد صيته هناك ، وأخذ عنه الناس هناك علما كثيرا ، وكان اماما عالما عاملا زاهدا ، ورعا دينيا متواضعا متقشفا ، متقللا من الدنيا راضيا باليسير منها ، وتقدم في الفقه مذهبا وخلافا .. »

وكان له - رحمه الله تعالى - نفس أبية ، قيل انه كان ببيت المقدس يطبخ في شقف ، وكان مجانباً للسلطان معرضا عنه وعن أصحابه ، شديدا عليهم مع مبالغتهم في بره . »

ووصفه القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري بالفضل والعلم والزهد في الدنيا ، وروى عنه أنه كان يقول :

« اذا عرض لك أمران : أمر دنيا وأخرى ، فبادر بأمر الأخرى يحصل لك أمر الدنيا والأخرى . »

ويبدو أن نفسه الأبية وصراحته والتزامه القول الحق أثارت ضده بعض الشائنين والحاسدين من أهالي بيت المقدس ، فسعوا به لدى حاكمها ، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينالوا منه ، واستدعاه الحاكم إليه ، فلم يأبه لدعوته ، ورفض أن يذهب ، قال ياقوت في ترجمته له :

« وكانت له نفس أبية ، وكان ببيت المقدس يطبخ في شقف ، وكان مجانباً للسلطان ، استدعاه فلم يجبه ، وراموا الغض من حاله فلم ينقصوه قلامة ظفر . »

والظروطوشى الذى كان يجانب السلطان وبنى عنه كان يقوم الليل متعبدا أثناء مقامه في بيت المقدس ، يشجيه الصوت يسمعه في هدوء الليل يناجى الله ويلوم النفس والقلب ان اغفيا أو توانيا

عن ذكر الله ، يروى الطرطوشي عن نفسه أنه كان نائما في بيت
المقدس ، فسمع صوتا حزينا ينشد :

أخوف ونوم ؟ ! ان ذا لعجيب !

ثكلتك من قلب ، فأنت كذوب

أما وجلال الله ، لو كنت صادقا

لما كان للأغماض منك نصيب

يقول الطرطوشي - رحمه الله - : « فأيقظ الصوت النوام

وأبكى العيون » .

ويذكر الضبي في « بغية الملتمس » ان من بين الدوافع التي

دفعت الطرطوشي لزيارة بيت المقدس رغبته في مقابلة أبي حامد

الغزالي ، فقد فاتته رؤيته في بغداد - كما سبق أن أشرنا - ،

لأن الطرطوشي ترك بغداد حوالي سنة ٤٨٠ هـ قبل أن يصلها

الغزالي وقبل أن يعين مدرسا بالنظامية ، فقد عين بها في

سنة ٤٨٤ هـ .

وكان الغزالي في هذه الفترة يعاني من محنته النفسية ، ويقضى

وقته - سواء في دمشق أو في بيت المقدس - منعزلا عن الناس في

مئذنة الجامع الأموي بدمشق أو في قلل الجبال يتعبد وحده ،

ويحاول أن يصل الى الحقيقة عن طريق التصوف والذوق وذكر

الله بعد أن عجز عن الوصول اليها عن طريق العقل والفلسفة وآراء

الفقهاء وأصحاب الملل والنحل المختلفة .

يقول الغزالي نفسه في كتابه « المنقذ من الضلال » يصف تجربته

وأحواله أثناء مقامه في الشام :

« دخلت الشام وأقمت بها قريبا من سنتين ،

لا شغل لي الا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة ،

اشتغالا بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب

لذكر الله ، كما كنت حصلت من علم الصوفية ، فكنت

اعتكف مدة في مسجد دمشق ، أصدد منارة المسجد
طول النهار ، وأغلق بابها على نفسه . الخ .

وقد شاهده في هذه الفترة القاضي الاشبيلي أبو بكر بن العربي
— تلميذ الطرطوشي — ووصف احواله وتجواله في البرية ، وجرت
بينه وبينه مناقشة ، قال ابن العربي :

« رأيت الامام الفزالي في البرية وعليه مرقعة ، وعلى
عاتقه ركوة ، وقد كنت رأيته ببغداد يحضر دروسه
اربعمائة عمامة من اكابر الناس وافاضلهم يأخذون عنه
العلم .

قال : فدنوت منه ، وسلمت عليه ، وقلت له :
يا امام اليس تدريس العلم ببغداد خيرا لك من هذا ؟ !
قال : فنظر الى شذرا وقال :

« لما طلع بدر السعادة في فلك الارادة ، وجنحت
شمس الوصال في مغارب الوصول :
تركت هوى ليلي وسعدى بمعزل ،

وعدت الى مصحوب اول منزل
ونادت بي الأشواق : مهلا ، فهذه

منازل من تهوى ، رويدك فانزل
غزلت لهم غزلا رقيقا ، فلم اجد

لفزلى نساجا ، فكسرت مفضلى

هذه كانت احوال الفزالي عندما فكر الطرطوشي في رؤيته
ومقابلته ، ولهذا لم يكذ يعلم بمقصد الطرطوشي ووصوله الى
بيت المقدس حتى بعد وترك المدينة . ولم يمكنه من مقابلته ، هكذا
ذكر الضبي تلميذ ابي بكر بن العربي (وهذا الاخير تلميذ
الطرطوشي) ، قال في كتابه « بغية الملمس » :

« ثم انصرف (أى الطرطوشى) يريد مصر ، وكان له غرض فى الاجتماع مع أبى حامد الغزالى ، فجعل طريقه على بيت المقدس ، فلما تحقق أبو حامد أنه يؤمه ، حاد عنه ، ووصل الحافظ أبو بكر فلم يجده » .
 وأقام الطرطوشى مدة فى بيت المقدس - كما أسلفنا - ، ثم تركها الى جبل لبنان فقصى به مدة أخرى ، يقول الضبى مستأنفا حديثه :

« فقصد جبل لبنان وأقام هناك مدة » .

٢ - فى أنطاكية :

ولسنا نعرف أى المدن الشامية زار الطرطوشى - غير بيت المقدس وجبل لبنان - ولكن من المرجح أنه زار دمشق وأقام بها ، وأنه طوف فى معظم مدن الشام الأخرى ، وأنه ذهب فى تطوافه الى أقصى الشمال ، فزار حلب ، ثم انحدر منها الى أنطاكية ، فهو يروى فى كتابه « سراج الملوك » « حادثة حدثت له ، يفهم منها أنه زار أنطاكية ، فيقول :

« كانت معى نفقة وافرة فى هميان على وسطى ، وكنت أسمع المسافرين يقولون : من نام بالليل فى الفيافي وله نفقة على وسطه فليحلها ، فان اللصوص اذا كابدت الخلق يبتدرون أوساطهم » .

فخرجت من بلاد السويدية الى أنطاكية - وهى **اذ ذاك حرب للروم** - ، فسرنا ليلتنا وأصبحنا فى باب أنطاكية ، فأخذتنى عينى ، وحالت هميان ، ونمت ، ولم أستيقظ الا ضحوة النهار ، فاستيقظت ومددت يدى الى هميان فلم أجده ، فجعلت أنظر الى القافلة ، والتفت الى الناس ، وقد أسقط فى يدى ولم يبق لى حيلة .

فاسترجعت ورفعت أمرى الى الله تعالى ، واذا
رجل من أهل القافلة متلفتا الى ، فوقع وجهى فى
وجهه ، فاذا هو يضحك لما رأى ما بى ، فقال :

— « مالك أيها الفقيه ؟ » .

قلت : « خير » .

افقام الى وقال :

— « خذ هميانك عافاك الله » .

فسألته كيف ظفر به ؟

فقال : « رأسك قد تدحرج ذراعين أو ثلاثة » .

والتفت فرأيت سوادا فى الموضع الذى كنت فيه

نائما ، فسرت اليه وأخذته ، فاذا هو الهميان .

رحمة الله ورضوانه عليه » .

وقد نستنتج من هذا النص شيئا آخر هاما ، وهو ان الطرطوشى
كان فى أنطاكية فى أواخر سنة ٤٩٠ هـ ، فهو يقول عند ذكره لها :
« وهى اذ ذلك حرب للروم » ، وهو يقصد بالروم هنا الصليبيين ،
فان الحملة الصليبية الأولى وفدت الى الشرق فى سنة ٤٩٠ هـ ،
وأستولت على مدن الشام الشمالية الواحدة بعد الأخرى ، وظلت
تحاصر مدينة أنطاكية نحو ثمانية شهور الى أن سقطت فى
جمادى الأولى سنة ٤٩١ هـ .

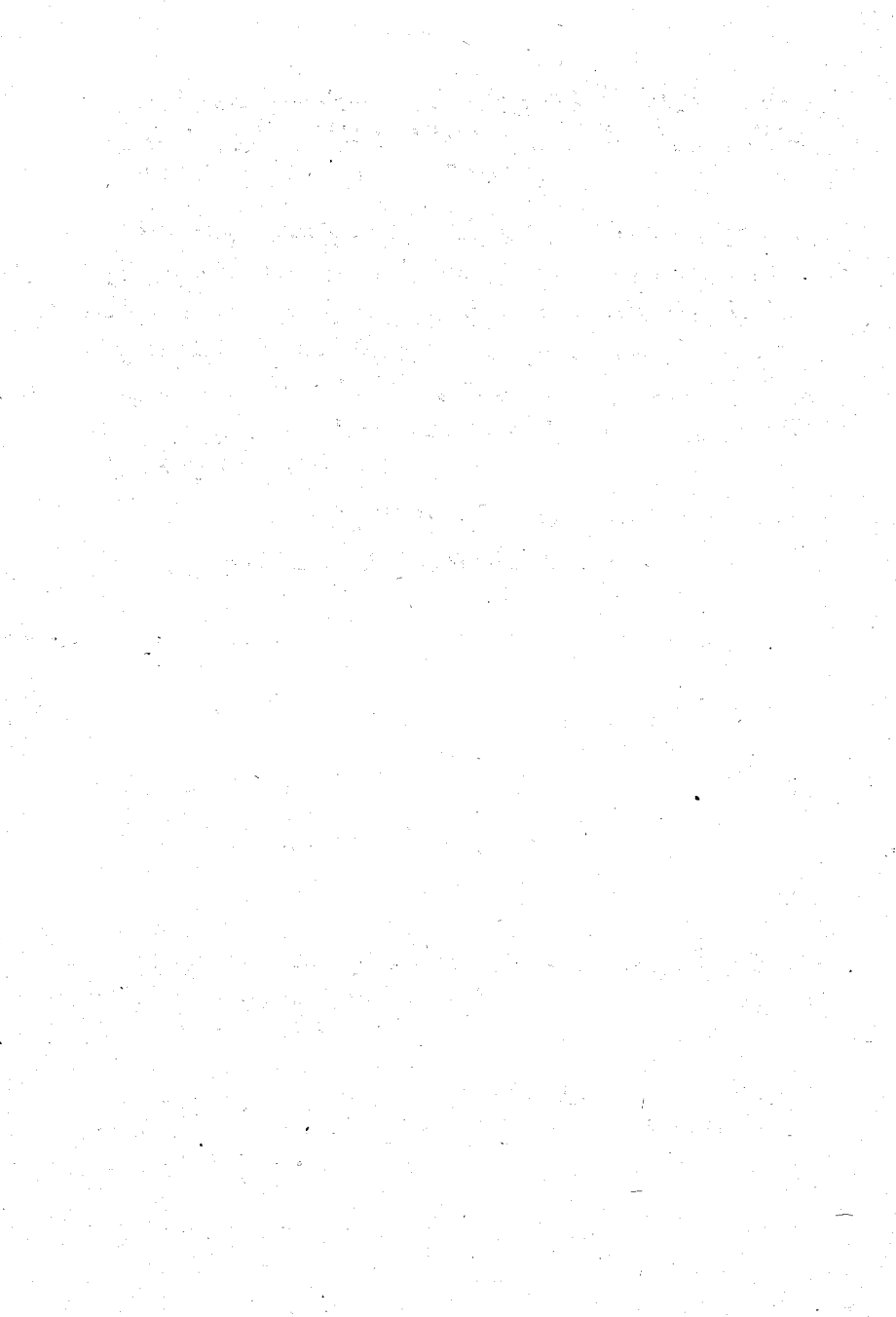
وأغلب الظن أن هذا الحادث الخطير واستيلاء الصليبيين على
سواحل الشام كلها وبيت المقدس فى نفس السنة هو الذى دفع
الطرطوشى دفعا الى ترك الشام ، وانه غادرها منذ ذلك الحين ،
واتجه الى مصر ، ونزل أول ما نزل فى مدينة رشيد ثم غادرها الى
مدينة الاسكندرية حيث اتخذها مقرا له .

ومما يقوى استنتاجنا (١) أن المراجع تذكر أن الطرطوشى وصل
مصر والوزير بها هو الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى ، والأفضل
ولى الوزارة بعد وفاة ابيه فى سنة ٤٨٧ هـ .

فإذا صح استنتاجنا يكون الطرطوشى قد وصل الى الشام
حوالى سنة ٤٨٠ هـ ، وهو فى الثلاثين من عمره ، وغادرها حوالى
سنة ٤٩٠ هـ ، وهو فى الأربعين من عمره ، بعد أن قضى فيه عشر
سنوات يطوف فى مدنه الكبرى ، ويستزيد من التحصيل ، ويشغل
معظم وقته بالعبادة وذكر الله وبالتدريس حتى أصبح له تلاميذ
كثيرون يعجبون به ويعلمه ، ويتسابقون الى حلقات دروسه ، فقد
قال ياقوت فى ترجمته له :

« وسكن الشام مدة ، ودرس بها ، وبعد صيته ،
وأخذ عنه الناس هناك علما كثيرا » .

(١) ويؤكد هذا الاستنتاج كذلك أن المؤرخ الاندلسى ابن خير ذكر فى كتابه
« فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين » ص ٥٩ أنه قرأ على القاضى
أبى بكر محمد بن عبد الله بن العربى كتاب « مختصر تفسير الثعالبى » الذى
ألقه أبو بكر الطرطوشى ، وأن ابن العربى ذكر أنه استمع لاستاذه الطرطوشى
وهو يدرس هذا الكتاب فى رمضان سنة ٤٨٧ هـ فى « مهد عيسى بالفسيفاء
من المسجد الأقصى » . فكان الطرطوشى كان مقيما يدرس فى بيت المقدس الى
أواخر سنة ٤٨٧ هـ .



الباب الثالث

الطرطوشى فى مصر

- ١ - الاسكندرية الرباط وباب المغرب .
- ٢ - فى مدينة رشيد أولا .
- ٣ - الطرطوشى يصل الى الاسكندرية اثر محنة سياسية علمية .
- ٤ - موعظة الطرطوشى للوزير الافضل شاهنشاه .
- ٥ - الطرطوشى وابن حديد - قاضى الاسكندرية .
- ٦ - الافضل يستدعى الطرطوشى ويحدد اقامته فى جامع الرصد
بالفسطاط .
- ٧ - الطرطوشى والوزير المامون البطائحي .

الطرطوشى فى مصر

١ - الاسكندرية الرباط وباب المغرب :

كان لموقع مدينة الاسكندرية الجغرافى اثر كبير فى توثيق العلاقات بينها وبين المغرب والأندلس ، فالاسكندرية كانت ثغرا من الثغور الاسلامية الهامة ، وكانت رباطا كبيرا ترابط فيها - منذ دخلها المسلمون - حامية مسلحة كبيرة ، فقد خصص عمرو بن العاص ربع جيشه لرباط الاسكندرية ، يقيمون بها ستة أشهر ، ثم يستبدلون بربع آخر .

وكان عمر بن الخطاب يرسل كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط فى الاسكندرية ، وذلك لان العرب لم يكونوا يأمنون عليها من غارات العدو بعد أن نقض الروم الصلح مرتين ، وحاولوا الهجوم عليها واستردادها .

وكتب عثمان بن عفان الى عبد الله بن سعد بن أبى السرح - بعد نقض الروم :

« قد علمت كيف كان هم أمير المؤمنين بالاسكندرية ، وقد نقضت الروم مرتين ، فألزم الاسكندرية رابقتها ، ثم أجر عليهم أرزاقهم ، وأعقب منهم فى كل ستة أشهر » .

وقد بلغت رابطة الاسكندرية فى عهد معاوية بن أبى سفيان سبعة وعشرين ألف جندى ، منهم عشرة آلاف من أهل الشام ، وخمسة آلاف من أهل المدينة .
ومن الأقوال المأثورة :

« أربعة ابواب من الجنة مفتحة فى الدنيا :
الاسكندرية ، وعسقلان ، وقزوين ، وجدة » .

ومنها : أن الاسكندرية « كنانة الله ، يحمل فيها خير سهامه » .
وقال عبد الله بن مرزوق الصديقي :

« لما نعى الى ابن عمي خالد بن يزيد - وكان توفي
بالاسكندرية - لقيني موسى بن علي بن رباح ، وعبد الله
ابن لهيعة ، والليث بن سعد متفرقين ، وكلهم يقولون :
أليس مات بالاسكندرية ؟ فأقول : بلى ، فيقولون :
هو حي عند الله يرزق ويجرى عليه أجر رباطه ما قامت
الدنيا ، وله أجر شهيد حتى يحشر على ذلك » .

فالمسلمون الأول كانوا يعتقدون أن الإقامة في الرباطات والحياة
في الثغور نوع من الجهاد ، ومن يموت أثناء مقامه بها فهو شهيد ،
ولهذا جذبت الاسكندرية اليها في العصور الاسلامية الأولى عددا
كبيراً من المسلمين ، ومن العلماء بوجه خاص ، ومن علماء المغرب
والأندلس بوجه أخص .

كما أن مسلمي المغرب والأندلس كانت تتطلع نفوسهم وتهفو
أرواحهم دائماً الى المشرق منبت الدعوة الاسلامية ، ومقر البلدان
المقدسة : مكة والمدينة وبيت المقدس ، وموطن العلم الاسلامي ،
ودار العلماء والمعاهد العلمية المختلفة ، فهم كانوا في شوق دائم الى
الرحلة الى هذا المشرق ، وهدفهم الأول أداء الفريضة والحج الى
بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه السلام ، والالمام بالمساجد
ومعاهد العلم ، ومقابلة العلماء والأخذ عنهم .

وكان المحط الأول لرحلتهم المشرقية هو مدينة الاسكندرية
- الرباط والثغر الاسلامي الكبير - ، يصلون اليها بعد رحلة طويلة
شاقة مضمينة عبر الصحراء حيناً ، وعلى ظهور السفن حيناً آخر .
وهم كانوا اذا وصلوها أقاموا فيها فاطلوا الإقامة ، طلباً
للراحة من عناء السفر ، ولزيارة معالمها التاريخية التي كانت تبهر
أنظارهم وقتذاك ، مثل المنارة - احدي عجائب الدنيا - ، وعمود
السواري ، والمسلات ، والقصور ، والكنائس القديمة ، والأسوار

الشاهقة ، وما يتخللها من أبراج وحصون وأبواب ، وأخيرا المساجد التي بنيت في العصر الاسلامى الأول لتكون معابد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ومدارس لنشر العلم .

وكان هؤلاء المغاربة والأندلسيون يستأنفون رحلتهم بعد ذلك فيؤدون الفريضة ، وقد تشوق البعض منهم الرحلة ومباهجها ، فيتنقلون في مدن الشرق وأمصاره الكبرى (مثل بغداد ودمشق وحلب والموصل وبيت المقدس وغيرها) لزيارتها والافادة من علمائها ، ثم يعودون بعد هذه الرحلة الطويلة الى الاسكندرية ليستأنفوا منها طريق العودة الى بلادهم ، ولكن كثيرين منهم - وخاصة العلماء وطلاب العلم - كانوا يؤثرون البقاء في الاسكندرية واتخاذها وطنا ودار اقامة ، لينالوا شرف المقام في هذا الثغر والرباط العظيم ، وليستزيدوا من علم يطلبونه ، أو لينشروا علما حصلوه وأتقنوه .

وقد زادت صلة الاسكندرية بالمغرب توثقا منذ أتى الفاطميون بجيوشهم من المغرب وفتحوا مصر واتخذوها مقر خلافة ، فقد أصبح المغرب منذ ذلك الفتح ولاية تابعة لمصر الفاطمية ، ونتيجة لهذا كثرت رحلات المغاربة والأندلسيين الى مصر ، والى الاسكندرية بوجه خاص .

ورغم أن المذهب الرسمى للدولة في العصر الفاطمى كان هو المذهب الشيعى ، ورغم أن الدولة بذلت جهودا كبيرة لنشر هذا المذهب بين المصريين جميعا ، فقد ظلت الاسكندرية مدينة سنية ، وكان المذهب المنتشر بين السكندريين والمعمول به بينهم هو مذهب الامام مالك ، وكذلك انتشر هذا المذهب في المغرب وبين المغاربة .

ومن كبار هؤلاء العلماء المالكية الذين رحلوا من المغرب والأندلس الى المشرق ثم اتجهوا الى الاسكندرية واستقروا بها في القرن الخامس الهجرى - أى من العصر الفاطمى - واتخذوها وطنا ودار مقام لهم فقيها وعالما الصوفى الكبير أبو بكر الطرطوشى .

٢ - في مدينة رشيد أولا :

عرفنا من قبل أن فقيهما أبا بكر الطرطوشي اتخذ سمت المتصوفة منذ كان يقيم في بغداد ، وأنه أقبل على حياة كلها زهد وتكشف وعبادة وذكر لله حتى وصفه من ترجموا له بأنه عالم متصوف .

ولهذا نراه يقبل - أثناء مقامه في الشام - على هذا النوع من الحياة ، ويحاول أن يتعرف على أئداده من الزاهدين العابدين ، فمن تعرف اليهم أثناء مقامه في جبل لبنان رجل من الزهاد يسمى عبد الله السايح ، قال الضبي :

« فقصد جبل لبنان وأقام هناك مدة وصحب به رجلا يعرف بعبد الله السايح من أولياء الله المنقطعين الى الله تعالى » .

ويبدو أن الطرطوشي كان يعتز بصداقة هذا المتعبد الزاهد وأنه عقد النية على مصاحبته ، فانه بعد أن ضاق بالمقام في الشام اثر استيلاء الصليبيين على معظم مدنها ، وعقد النية على الرحيل الى مصر عرض على صفيه وصديقه الشيخ عبد الله السايح أن يرحل معه ، ولكن الشيخ رفض واحتج بأنه يعيش حيث يعيش في المباح من ثمر الأشجار ويأكل من الحلال وبذلك يتمكن من التفرغ للعبادة ، ولا يضمن أن يجد مكانا آخر تتوفر فيه هذه الشروط ، قال الضبي :

« ثم أراد الحافظ أبو بكر أن يقصد مصر ، فعرض على أبي محمد السايح صحبته والمشي معه ، وقال له : أنت ها هنا بمعزل ولا تلقى أحدا ولا يلقاك ، وان مت لم تجد من يواريك ؛ وفي مخالطة الناس ومقابلتهم ونشر العلم وحضور الجماعة في الجمعة ما لا يخفى عليك ، فقال له عبد الله : أنا ها هنا أكل الحلال ، وأعيش في

المباح - دون تكلف (١) - من ثمر هذه الأشجار ،
ولا أجد في غير هذا الموضع من المباح ما أجد فيه .

فالطروشى يلتزم بما يلتزم به المتصوفة من اقبال على الزهد
والتقشف والعبادة وذكر الله ، ولكنه لا يؤمن بما يؤمن به بعضهم
من العزلة والبعد عن الناس بل هو يرى أن الخير كل الخير في مخالطة
الناس ومقابلتهم ونشر العلم لهذا لم يزل بصديقه السايح يحاوره
ويحاول أن يقنعه بالرحلة معه الى مصر ، فقال له انه يعلم أن بمصر
مدينة تسمى رشيد فيه من المباح الذى ينشد الملح والحطب ،
وأنهما يستطيعان أن يجمعاً من هذين المباحين ما يمكنهما من
العيش .

وكان الشيخ عبد الله يعلم أن صديقه الطروشى رجل فقيه
يشتغل بالتدريس ويحب أن ينفع الناس بعلمه ، والناس تقبل
دائماً عليه ، فأعلن لصديقه خوفه أن يدفعه هذا النوع من الحياة
الى البعد عنه ومفارقتها ، ويكون بذلك قد تجشم مشقة الانتقال
من لبنان الى مصر دون مبرر ، ولكن الطروشى طمأنه وعاهده على
أن لا يفارقه أبداً ، روى هذا الحوار الضبى فى ترجمته للطروشى ،
قال :

» فقال له الحافظ أبو بكر : ان بقطر (٢) مصر
موضعا يعرف برشيد ، فيه شيئان مباحان : الملح
والحطب ، نقيم به ويكون عيشنا من هذين المباحين .
فقال له عبد الله : أنت لا يتركك الناس ، وأفارق

(١) الاصل : تكلف .

(٢) فى الاصل : « أن تنظر مصر » ولا معنى لها ، وما أثبتناه قراءة ترجيحية
يستقيم بها المعنى .

موضوعي (ثم تفارقني) (١) وأفارقك ، فعاهده ان لا يفارقه .

وركبا الطريق الى مصر حتى وصلا الى رشيد ، وأقاما هناك اذا احتاجا الى قوت جمعا (٢) من حطب أو ملح فباعا ما يحملانه من ذلك على ظهورهما وتقوتا بثمره » .

٣ - الطرطوشي يصل الى الاسكندرية اثر محنة سياسية علمية :

كانت الاسكندرية - عند وصول الطرطوشي بها - وشيكة الخروج من أزمة بل أزمات خطيرة ، بدأت بالمجاعة الكبرى التي حدثت في عهد الخليفة المستنصر نتيجة لقصور فيضان النيل لمدة سبع سنوات ، فاشتد الفلاء ، وعمت الفلال ، وانتشر الوباء حتى عم مصر كلها ، وضاعت هيبة الخليفة والدولة ، وانتشرت الفتن في أنحاء مصر ، فاستعان الخليفة المستنصر بواليه على عكا أمير الجيوش بدر الجمالي ، فاستدعاه اليه ، وعينه وزيرا ، وعهد اليه بمعالجة الأزمة والقضاء على المشاغبين ومشرى الفتن .

وبدأ بدر الجمالي في سنة ٤٦٧ هـ بالبلاد الواقعة شرقي فرع دمياط ، وتتبع المفسدين وقضى عليهم ، ثم انتقل الى البحيرة والاسكندرية ، وكانت طائفة « الملحية » - وهي احدى طوائف الجيش الفاطمي - قد اثارت الفتنة في المدينة ، وأعلنت العصيان ، فحاصر بدر الجمالي الاسكندرية اياما الى أن استولى عليها عنوة وقتل من « الملحية » عدة كثيرة .

وفي سنة ٤٧٧ هـ - أي قبل وصول الطرطوشي الى الاسكندرية بنحو ثلاثة عشر عاما - خرج على بدر الجمالي ابنه الأوحد ، وانضم اليه جماعة من العسكر والعربان ، ولجأ الى مدينة الاسكندرية

(١) أضفنا هاتين الكلمتين ليتضح المعنى .

(٢) الأصل : « حوجا » .

وتحصن بها ، فسار اليه أبوه ، وحاصره مدة ، وألح عليه بالقتال حتى هزمه ودخل المدينة .

وعند موت الخليفة المستنصر في سنة ٤٨٧ هـ - أى قبل وصول الطروشى بنحو ثلاث سنوات - بادر وزيره الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى فأجلس أبا القاسم أحمد - أصغر أولاد المستنصر - على عرش الخلافة ، فغضب الابن الأكبر نزار وفر الى الاسكندرية وفي صحبته ابن مصال أحد قواد الدولة .

وفي الاسكندرية اتصل نزار بالأمير افتكين - والى المدينة - ووعدته أن يوليه الوزارة إن هو وقف الى جانبه ، فاستجاب افتكين لدعوته ، وأقع سكان الاسكندرية بمبايعته ، ولقبه بالمصطفى لدين الله .

وخرج الوزير الأفضل شاهنشاه بجيش من القاهرة ، واتجه الى الاسكندرية ، وجرت بين الفريقين حروب انتصر فيها نزار ، وعاد الأفضل الى القاهرة ، وقوى أمر نزار ، واستولى على بلاد الوجه البحرى .

ولكن الأفضل جهز جيشا جديدا ، وحاصر الاسكندرية حصارا شديدا ، فاشتد الضيق بنزار وصحبه ، فجمع ابن مصال ماله وفر فى البحر الى بلاد المغرب ، ففت ذلك فى عضد نزار ، وانتهى الأمر بهزيمته ، ودخل الأفضل الاسكندرية ، وقبض على نزار ، وأرسله الى القاهرة حيث قتله بها ، واستقر أبو القاسم أحمد خليفة ولقب بالمستعلى بالله ، وانقسمت الشيعة الاسماعيلية منذ ذلك الوقت الى فرقتين :

- الاسماعيلية النزارية ، والاسماعيلية المستعلية .

وكان هذا الانقسام المذهبى من أهم الأسباب التى أدت الى اضعاف الدولة وانحلالها وسقوطها بعد ذلك .

كان لهذه الحوادث جميعا - دون شك - أثر فى تخريب المدينة ،

بدليل قول المقرئى عند كلامه على خروج الأفضل لقتال نزار فى الاسكندرية سنة ٤٨٨ هـ :

« وحاصرها ونصب عليها المجانيق ، وألح عليها بالقتال ، ومنع عنها الميرة » .

وأصاب الاسكندرية من هذا النزاع ومن هذا الحصار والقتال كثير من الهدم والتخريب ، وانتقم الأفضل - بعد دخوله المدينة - من أهلها انتقاما شديدا لتأييدهم نزارا ومبايعتهم له بالخلافة ، ويبدو أن انتقامه كان عنيفا صارما حتى انه قتل عددا من علمائها المالكيين ، فتعطلت الشعائر الدينية ، ولم تقم الجمعة فى مساجدها . فان ابن فرحون يقول فى ترجمته للطروطوشى ان ابا الطاهر ابن عوف قال :

« وكان نزوله (أى الطروطوشى) بالاسكندرية باثر قتل الأمير بها علماءها ، فوجد البلد عاطلا من العلم ، فأقام بها وبث علما جما » .

وأكد هذا الضبى فى كتابه « بغية الملتمس » ، فبعد أن وصف نوع الحياة التى كان يحيها الطروطوشى مع صفيه عبد الله السايح فى مدينة رشيد ، قال :

« وبقيها هناك (أى فى رشيد) مدة الى أن قتل العبيدى صاحب مصر جماعة من فقهاء أهل الاسكندرية لسبب يطول شرحه ، ولم يبق من يشار اليه ، وسمع أهل الاسكندرية بكون الفقيه برشيد فركب اليه قاضيها .. الخ » .

هاتان روايتان وثيقتان تنسب اولاهما الى أبى طاهر بن عوف تلميذ الطروطوشى الأثير لديه وخلفه فى تصدر العلماء بعد وفاته ، وتنسب ثانيتهما الى الضبى تلميذ تلميذ الطروطوشى أبى بكر

ابن العربى ، وكلتاها تؤكدان ما سبق أن قررناه من أن الأفضل قد انتقم من أهالى الاسكندرية بعد انتصاره على نزار ، وقتله للعدد الكبير من أعيانها وعلمائها ، بحيث لم يبق في المدينة كبير من علمائها ، وأحس أهلها بحاجتهم الماسة الى فقيه كبير يتصدر حلقات الدرس فى مساجدها ليفقه الناس فى أمور دينهم ، ونمى اليهم خبر وجود أبى بكر الطرطوشى بالقرب منهم فى مدينة رشيد ، فكونوا وفدا من أعيانهم وفقهائهم يتقدمه قاضى المدينة ابن حديد ، وانتقلوا الى رشيد .

وفى رشيد ظلوا يبحثون عن أبى بكر الطرطوشى الى أن راوه مقبلا عليهم من اطراف المدينة وفى صحبته الشيخ الزاهد عبد الله السايح ، وكل منهما يحمل على ظهره حزمة من الحطب .

وألقى الطرطوشى ما على ظهره ، وجلس يستمع الى رجال الوفد السكندرى ، فأخبروه بما وصلت اليه أحوال المدينة ومجالس العلم بها ، والقوا اليه برغبتهم فى أن ينتقل معهم الى الاسكندرية ليفيدوا من علمه .

وتجددت المشكلة القديمة ، فالطرطوشى لا يريد مفارقة أخيه السايح والشيخ الزاهد لا يريد مفادرة رشيد ، فهو فى الاسكندرية لا يستطيع أن يعيش فى الحلال ويأكل المباح - كما يفعل فى رشيد .

ولكن رجال الاسكندرية لم يعجزوا عن ايجاد حل لهذه المشكلة ، فقالوا للشيخ عبد الله ان صاحب صقلية يؤدى لأهل الاسكندرية جزية فى كل سنة مقدارها ثلاثمائة قفيز من الشعير ، ووعده أن يخصصوا له هذه الجزية ليقطات منها ، بهذا أقنعه ، وبهذا تم الاتفاق ، وانتقل الرجلان الطرطوشى والسايح الى الاسكندرية .

روى هذه القصة كلها الضبى بشيء من التفضيل قال :
« وسمع أهل الاسكندرية بكون الفقيه برشيد ،

فركب اليه إقاضيها ابن حديد (١) وجماعة من أهلها ،
فلما وصلوا الى رشيد سألوا عنه ، فلم يجدوا من يعرفه
الا بعض الفقراء هناك ، فقال لهم : أنا أدلكم عليه ،
اقعدوا هنا ، فكأنى به قد وصل ، فقعدها ساعة ،
ووصل الفقيه من الشعرا (٢) وعلى ظهره حزمة حطب ،
وصاحبه معه ، فقال لهم (الفقير) : هذا هو . . . ،
ووضع (الطرطوشى) الحزمة بالأرض ، وأخبروه بما طرأ
عليهم (٣) ولا تعليم ، وباحتياج أهلها
اليه ، وبما له فى قصدهم من الأجر .

فقال لهم : قد علمت ذلك ، ولكنى لا أفارق
صاحبى هذا بوجه - وأشار الى عبد الله السايح - ،
لأنى سقته من موضعه ، وعاهدته أن لا أفارقه ، فدونكم
(هو) ، فان ساعدنى (٤) ، فأنا ناهض معكم .

فكلموه ، فقال : أنا لا أمنعه ، لكنى أقيم هنا .

فقال الحافظ أبو بكر : وأنا لا أفارقه .

فتضرعوا الى عبد الله ، فقال لهم : أنا هنا أعيش
فى الحلال وأكل المباح ، ولا أجد هذا عندكم .

فقال له القاضى : ان صاحب صقلية - دمره الله -
يؤدى جزية فى كل عام لأهل الاسكندرية ثلاثمائة قفيز
من الشعير ، وكذا وكذا ، فخذ الشعير تتقوت (٥) به
وتصرفه فى منافعك .

(١) الأصل : ابن حديدة ، والصحيح ما أثبتناه .

(٢) كذا بالأصل المنشور ، ولعل « الشعرا » أسم كان يطلق على ضاحية
من ضواحي رشيد ، أو لعلها « العراء » وقد أخطأ ناشر الكتاب فى قراءتها .

(٣) بياض بالأصل ، ولعل المقصود أن المدينة أصبحت عاطلة من العلماء
والتعليم ، كما سبق أن ذكر ابن فرحون والضبى فيما نقلناه عنهما .

(٤) الأصل : « فدونكم بأن ساعدنى » ولا يستقيم بها المعنى .

(٥) الأصل : « تتفون » ولا معنى لها .

فقال : أنا لا أحتاج الى أكثر من رغييف في كل ليلة .
فضمنوا له ذلك ، وأقبلا معهم الى الاسكندرية ،
ووفوا لأبى محمد السايح بما قالوه ، وصنعوا له من
الشعير عدة أرغفة ، ووضعوها له في جبل ، فكان يظفر
كل ليلة منها على رغييف ، ويلزم بيته لا يبرح منه .
واشتمل أهل الاسكندرية على أ الحافظ أبى بكر ،
وقعد للتدريس ، ونفع الله به كل من قرأ عليه ، وانتشر
علمه » .

استقر بالطرطوشى المقام فى الاسكندرية واتخذها وطنا ثانيا
ودار مقام وصدق عليه قول الشاعر :

وألقت عصاها واستقر بها النوى

كما قر عينا بالاياب المسافر

وبدأ يدرس وينشر العلم على مذهبه - مذهب مالك - وتقاطر
الناس على حلقاته يأخذون عنه ويقراون عليه ويفيدون من علمه ،
وقد وصف هو الحالة فى الاسكندرية عند وصوله اليها وما أحدثه
بها ، قال :

« ان سألنى الله تعالى عن المقام بالاسكندرية
لما كانت عليه فى أيام الشيعة العبيدية من ترك اقامة
الجمعة ومن غير ذلك من المناكر التى كانت فى أيامهم
أقول له : وجدت قوما ضلالا فكنت سبب هدايتهم » .

ولم يلبث الطرطوشى فى الاسكندرية الا قليلا حتى عرف
واشتهر ، وجذب الطلاب والعلماء الى حلقات دروسه ، وتزوج بعد
قليل من سيدة موسرة من نساء الاسكندرية ، فأطلقت يده فى
أموالها ، وتحسنت أحواله ، ووهبته دارا من أملاكها ، جعل سكنه
معها فى الدور الأعلى ، واتخذ من الدور الأسفل مدرسة يلقي فيها
دروسه ، ويستضيف فيها طلاب العلم من الغرباء الوافدين على
الاسكندرية .

كانت هذه السيدة التي تزوجها أبو بكر الطرطوشي سييدة فاضلة تقية دينة من بيت من أكبر بيوت الاسكندرية وقتذاك فضلا وعلما وجاها وثروة ، بيت بنى عوف ، فهى خالة فقيه الاسكندرية وكبير علمائها أبى الطاهر بن عوف - تلميذ الطرطوشي وخليفته فيما بعد - ، وكان لهذه السيدة ابن من زوج سابق ، عرف بالطيش والرعونة ، وقد آلمه زواج أمه من أبى بكر الطرطوشي ، ولعله آلمه كذلك أن ينتقل جزء من ثروة أمه الى هذا الزوج الجديد ، فأضمر فى نفسه شرا ، وأعد خنجرا ، ودخل فى الليل على الفقيه أبى بكر حيث يقيم مع أمه يريد قتله ، ولكنه وجد الزوجين وكلا منهما منعددا يصرى ، وفى طريقه الى الفقيه اصطدم بسارية من سوارى المدرسة فسقط مغشيا عليه ، وأنجى الله الفقيه من هذه المحنة ، وكانت توبة الابن على يديه ، روى الضبى فى « بغية الملمس » هذه القصة بالتفصيل ، قال :

« وكانت بالاسكندرية امرأة متعبدة هى خالة أبى الطاهر بن عوف ، فخطبته وتزوجها ، وبنى بها فى المدرسة .

وكان لها ابن من أهل الدنيا كثير التخليط ، فصعب ذلك عليه ، وعمد الى خنجر ، واستتر فى المدرسة ، فلما انهار الليل قصد البيت الذى كانت فيه أمه مع الفقيه ، فلم يجد فيه أحدا ، ووجد كل واحد منهما قد قام الى ورده ، وسمع صوت الفقيه يقرأ فى الصلاة فأم الصوت وخنجره فى يده ، فلما قرب منه وهو عازم على قتله ، حالت بينه وبينه سارية من سوارى مساكن المدرسة ، وضرب فيها بوجهه ، وخر مغشيا عليه ، والفقيه لا يشعر .

فلما طلع الفجر نزل الى المدرسة فصلى الصبح ودرس ، وتصرفت زوجه فى أثناء ذلك فوجدت ابنا متجدلا لا يعقل ، فكلمته فلم يكلمها .

فلما فرغ الفقيه من التدريس صعد الى منزله ، فأعلمته زوجته بمكان ابنها ، فصعد نحوه فوجده على تلك الحال ، فجر يده على وجهه وتفل وتكلم بكلمات ، ففتح عينيه ، فلما أبصر الفقيه قال له : هات يدك ، فأنا تائب الى الله تعالى ، والله لا عصيته بعد اليوم أبدا ، ولا تركتك في هذا الموضع ، انتقل الى دار أهلك فاسكنها بفضل .

وحسنت توبة الابن بعد ذلك » .

٤ - موعظة الطروشى

للووزير الفاطمى الأفضل شاهنشاه

وبعد أن استقرت الحياة بالطروشى فى الاسكندرية خرج لزيارة العاصمة القاهرة ، وهناك ذهب لزيارة الوزير الكبير صاحب السلطان الأعلى وقتذاك الملك الأفضل شاهنشاه .

ذهب لزيارته بعد أن سمع عن جبروته وقوته وسلطانة ، لا ليسأله منحة أو عطية ، ولا ليقدم له المديح ويشيد بذكره ، بل لينصحه نصيحة العلماء المخلصين ، وليعظه الموعظة الحسنة ، وليطلب اليه الرفق بالرعية ، وأشاعة العدل بينهم ، وفتح أبواب قصره لكل شاك أو متظلم .

ولم يكن هذا غريبا من الطروشى الرجل العالم الزاهد الجرىء الذى لا يخشى فى الحق لومة لائم ، والذى لا يخاف صاحب السلطان ولا يهابه ، فهو الذى وصفه ابن فرحون بأنه كان أبى النفس ، والذى وصفه المقرئ بأنه كان قوالا للحق .

وقد أثبت الطروشى موعظته هذه للأفضل فى كتابه « سراج الملوك » قال :

« فلما دخلت على ملك مصر - وهو الأفضل

ابن أمير الجيوش - فقلت : سلام عليكم ورحمة الله

وبركاته ، فرد السلام على نحو ما سلمت ردا جميلا ،
وأكرم اكراما جزيلا ، وأمرني بدخول مجلسه ، وأمرني
بالجلوس فيه ، فقلت :

— أيها الملك : ان الله سبحانه وتعالى قد أحلك
محلا عاليا شامخا ، وأنزلك منزلا شريفا باذخا ، ومللك
طائفة من ملكه ، وأشركك في حكمه ، ولم يرض أن
يكون أمر أحد فوق أمرك ، فلا ترض أن يكون أحد
أولى بالشكر منك .

وان الله تعالى ألزم الورى طاعتك ، فلا يكونن أحد
أطوع لله منك .

وان الله تعالى أمر عباده بالشكر ، وليس الشكر
باللسان ، ولكنه بالفعل والاحسان ، قال الله تعالى :
« اعملوا آل داود شكرا » .

واعلم ان هذا الملك الذى أصبحت فيه انما صار
اليك بموت من كان قبلك ، وهو خارج عن يدك مثل
ما صار اليك .

فاتق الله فيما خولك من هذه الأمة ، فان الله
سألك عن النقمير والقطمير والفتيل ، قال الله تعالى :
« فوريك لنسألنهم اجمعين عما كانوا يعملون » وقال
تعالى : « وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ،
وكفى بنا حاسبين » .

واعلم أيها الملك أن الله تعالى قد أتى ملك الدنيا بحذافيرها
سليمان بن داود — عليهما السلام — فسخر له الانس والجن
والشياطين والوحوش والبهائم ، وسخر له الريح تجرى بأمره
رخاء حيث أصاب ، ثم رفع عنه حساب ذلك أجمع ، فقال له :
« هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب » .

فوالله ما عدتها نعمة كما عدتموها ، ولا حسبها كرامة
كما حسبتموها ، بل خاف أن تكون استدراجا من الله تعالى ومكرا
به ، فقال : « هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر » .

فافتح الباب ، وسهل الحجاب ، وانصر المظلوم ، أعانك الله
على ما قلدك ، وجعلك كهفا للملحوف ، وأمانا للخائف » .
واستطرد الطروشى فى حديثه فقال للأفضل :

« قد دوخت البلاد شرقا وغربا ، فما اخترت
مملكة تزوجت فيها وولد لى فيها غير هذه المملكة » .
مما يفهم منه أن زيارته هذه للأفضل كانت بعد اقامته فى
الاسكندرية بمدة طويلة ، وبعد أن تزوج بها وأنجب .
وختم حديثه أخيرا بهذا البيت من الشعر :

« والناس أكيس من أن يحمدوا رجلا

حتى يروا عنده آثار احسان »

هكذا خاطب الطروشى العالم الزاهد الملك الأفضل ذا الحول
والطول ، وهو فى أوج سلطانه وعظمته ، والكل يأترون بأمره حتى
خليفته الأمر نفسه .

ولم يرو لنا الطروشى كيف تقبل الأفضل هذا الحديث ،
وأغلب الظن أنه هز كيانه هزا ، وأنه استنكره فيما بينه وبين
نفسه ، وأن كان قد تظاهر بقبوله قبولا حسنا ، فان الرجل المستبد
يأنف عادة من النقد ، وتستهويه آيات المديح .

٥ - الطروشى وابن حديد - قاضى الاسكندرية

وعاد الطروشى الى الاسكندرية ليستأنف سيرته الأولى ،
وليفرغ للعلم والتعليم ، وتكاثرت طلابه ، وأقبلوا على دروسه
وأحبه ، واصطنع هو لهم طريقة جديدة هى أقرب شىء الى طرق
التربية الحديثة ، فلم يقصر اجتماعاته بهم على حلقات الدرس

ثم ينفضون من حوله ، بل كان يصطحبهم ويخرج معهم في معظم الأوقات في رحلات خارج المدينة الى البساتين والأماكن الخلوية ، وهناك في الهواء الطلق يلقي دروسه ، أو يذاكرهم فيما حفظوه ودرسوه ، وشاقت هذه الطريقة لتلاميذه فأقبلوا عليه ، وكثر عددهم ، حتى كان اذا خرج في رحلة من هذه الرحلات خرج في كوكبة لا تقل عن أربعمئة طالب .

وصف لنا هذه الطريقة خادم الطرطوشي الخاص وأحد تلاميذه - أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن التجيبي الاسكندراني - قال :

« كان - أي شيخه الطرطوشي - صاحب نزهة مع طلبته في أكثر الأوقات ، يخرج معهم الى البستان فيقيمون الأيام المتوالية في فرحة ومذاكرة ومداعبة مما لا يقدح في حق الطلبة ، بل يدل على فضلهم وسلامة صدرهم ، وخرجنا معه في بعض المنزهة فكنا ثلاثمئة وستين رجلا ، لكثرة الآخذين عنه المحبين في صحبته وخدمته » .

ولكن هذا الإقبال جر على الطرطوشي الوبال ، فقد ضاق به قاضي الاسكندرية ابن حديد ضيقا شديدا ، ولابن حديد مع الطرطوشي قصة طويلة :

كانت أسرة بنى حديد كبرى الأسرات السكندرية في ذلك الوقت مكانة وعلمًا وثروة وجاها وسلطانا ، وقد ولي منصب القضاء في المدينة أكثر من واحد من أفرادها ، وكان القاضي وقت وجود الطرطوشي بالاسكندرية هو مكيين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسن بن حديد .

ولكى نعرف أي الرجال كان ابن حديد هذا يكفي أن نعلم أن منصب القاضي كان يلي في الترتيب والمكانة منصب حاكم المدينة ، وكان يعزز هذه المكانة أن قاضي المدينة كان له - الى جانب

اختصاصاته القضائية الدينية الواسعة - اختصاصات مالية وإدارية
وضرائبية كثيرة ، فكان يشرف على الأحباس - أى الأوقاف - ،
وعلى الجوالى - أى ضريبة الجزية التى تجمع من أهل الذمة من
يهود ونصارى - ، وعلى دار الضرب ، وعلى المكوس - أى الضرائب
المدنية غير الشرعية .

وكان يعزز هذه المكانة أيضا أن ابن حديد نفسه كان ذا ثروة
طائلة وأنه كان يحيا حياة العلية من القوم ، فيفتح قصره لكل قاصد ،
ويكرم الناس ، ويفدق العطايا ، مما دفع الكثيرين من شعراء العصر
إلى مدحه والاشادة بذكره ، وقد صدق المقرئى فى وصفه
حين قال :

« وله مروءة عظيمة ، ويحتذى أفعال البرامكة ،
وللشعراء فيه مدائح كثيرة » .

وقد روى المقرئى فى كتابه « الخطط » أكثر من قصة لبيان
هذه المروءة والهمة العالية ، ولوصف حياة البذخ والترف التى كان
يجيهاها القاضى ابن حديد ، أطرفها : أن قصر ابن حديد فى
الاسكندرية كان له بستان جميل ، وفى البستان نافورة كبيرة تتكون
من قطعة واحدة من الرخام البديع ، ينحدر فيها الماء فتكون كالبركة
فى اتساعها ، وكان صاحبها يباهى بها أهل العصر ، الى أن علمت
بها البدوية حبسبة الخليفة الأمر بأحكام الله الفاطمى ، فطلبته
منه ، وأجابها ابن حديد - مضطرا - الى طلبها ، وحملت النافورة
الى القاهرة ، وركبت فى بستان الهودج ، وهو القصر الجميل الذى
بناه الخليفة الأمر لمحبوبته فى جزيرة الروضة ؛ وتألّم ابن حديد
لفقده هذه النافورة الما بالغا ، وما زال يتقرب للبدوية بالهدايا الى
أن أمرت برد النافورة اليه .

ويروى المقرئى خلال كلامه عن القاضى ابن حديد حادثة أخرى
يستدل بها على مبلغ ما كان يتمتع به القاضى من حياة كلها ترف

وغنى ورفاهية ، وما كان يضمه قصره من تحف جميلة وطرف رائعة ، قال :

« وكان هذا المكين متولى قضاء الاسكندرية ونظرها في أيام الأمر ، وبلغ من علو همته وعظم مروءته أن سلطان الملوك حيدرة - أخا الوزير المأمون البطائحي - لما قلده الأمر ولاية ثغر الاسكندرية في سنة سبع عشرة وخمسائة ، وأضاف اليه الأعمال البحرية ، ووصل الى الثغر ، ووصف له الطبيب دهن شمع بحضور القاضى المذكور ، فأمر في الحال بعض غلمانه بالمضى الى داره لاحضار دهن شمع ، فما كان أكثر من مسافة الطريق الا أن أحضر حقا مختوما ، فك عنه فوجد فيه منديل لطيف مذهب على مداف بللور فيه ثلاث بيوت ، كل بيت عليه قبة ذهب مشبكة مرصعة بياقوت وجوهر : بيت دهن بمسك ، وبيت دهن بكافور ، وبيت دهن بعنبر طيب ، ولم يكن فيه شيء مصنوع لوقته .

فعندما أحضره الرسول تعجب المؤمن والحاضرون من علو همته ، فعندما شاهد القاضى ذلك بالغ في شكر انعامه ، وحلف بالحرام ان عاد الى ملكه ، فكان جواب المؤمن : « قد قبلته منك لا لحاجة اليه ، ولا لنظر في قيمته ، بل لظهار هذه الهمة واذاعتها ، وذكر أن قيمة هذا المداف وما عليه خمسمائة دينار » .

ويعلق المقرئى على هذا بقوله :

« فانظر - رحمك الله - الى من يكون دهن الشمع عنده في اناء قيمته خمسمائة دينار ، ودهن الشمع لا يكاد أكثر الناس يحتاج اليه البتة ، فماذا تكون ثيابه وحلى نسائه وفرش داره وغير ذلك من التجميلات » .

كان رجل كابن حديد ينتظر من الطرطوشى عند نزوله بالمدينة أن يسعى اليه وأن يمدحه وأن يكون من حاشيته ، ولو أنه فعل هذا لأغدق ابن حديد عليه العطايا ، وليسر عليه شؤون الحياة جميعا ، ولكن الطرطوشى كان من صنف آخر من الرجال ، كان رجلا يعتد برجولته ، وكان عالما يعتر بعلمه ، وكان بعد هذا زاهدا لا يحبذ ذلك النوع من الحياة المترفة الباذخة التى كان يحيها ابن حديد ، ولعله أخذ على ابن حديد أيضا بعض تصرفاته المالية ، وبعدها عن قواعد الشرع والاسلام ، وأغلب الظن أنه أطلق لسانه يتحدث الى الناس بهذه المآخذ المالية ويعيد الحديث ويكرره فى عنف وقسوة مما ألم ابن حديد وآذاه .

وكانت للطرطوشى الى جانب هذا فتاوى كثيرة يعارض بها بعض النظم والقواعد القائمة التى تأخذ بها الدولة ، فهو مثلا قد أفتى - وهو فى الاسكندرية - بتجريح الجبن الذى يأتى به الروم الى المدينة ، وألف فى تحريمه رسالة صغيرة (١) ، وهو ينتقد كثيرا من العادات السائدة فى المجتمع والتى تنافى الدين الاسلامى ، ويؤلف فى نقدها كتابا أسماه « بدع الأمور ومحدثاتها » (١) .

ثم هو بعد هذا قد جذب اليه عددا ضخما من تلاميذ المدينة وعلمائها ، فصار اذا انتقل من مكان الى مكان ، أو اذا خرج الى رحلته خرج فى موكب حافل مهيب ، يثير الانتباه ويلفت الأنظار ، وفى هذا دون شك منافسة خطيرة لقاضى المدينة ورجلها ابن حديد ، وفيه خطورة محققة على مركزه ومكانته ؛ لقد انفض السامر من حوله ، وأصبح الحديث بين الناس فى الاسكندرية عن الطرطوشى ، وعلم الطرطوشى ، ورحلات الطرطوشى ، وفتاوى الطرطوشى ، بل ولهج الناس بنقد الطرطوشى لتصرفات ابن حديد كقاض ، وتناقلوا هذا النقد فيما بينهم مما أساء الى سمعة القاضى .

(١) انظر الفصل الخاص بمؤلفات الطرطوشى فيما يلى .

لهذا جمع ابن حديد هذه المآخذ كلها ، ورفعها الى الوزير
الأفضل شاهنشاه وبين له خطورة هذا الرجل على الاسكندرية
وأهلها ، يؤكد هذه الحقيقة ابن فرحون في ترجمته للطروشى ، فقد
قال تعقيبا على حديثه عن رحلات الطروشى العلمية مع طلابه :

« وهذا من جملة ما رفعه عنه القاضى ابن حديد
الى العبيدى - يقصد الخليفة الفاطمى - ووشى به
اليه فى أمور غيرها ، وكان الطروشى يذكر بنى حديد
ذكرا قبيحا ، لما كانوا عليه من أخذ المكوسات والمعونة
على المظالم ، وكان يفتى بتحريم الجبن الذى يأتى به
النصارى ، ويفتى بقطع محرقات كثيرة ، فخاطب بذلك
بنو حديد ، وذكروه للسلطان » .

٦ - الأفضل يستدعى الطروشى

ويجدد اقامته فى جامع الرصد بالفسطاط

والسلطان المقصود هنا هو الوزير الأفضل شاهنشاه بن بدر
الجمالى ، والأفضل لم ينس بعد كيف ثارت الاسكندرية مع نزار
ابن المستنصر منذ قليل ووقفت تقاومه مدة ، وهو لا يريد أن يشور
شئ من الشعب فى هذه المدينة ، ولو أن هذا العالم الزاهد الثائر
ظل على سياسته هذه ينتقد المجتمع ، وينتقد الحاكم ، وينتقد
القاضى وأحكامه ، وينتقد القواعد والنظم المالية المتبعة ، وينادى
بتحريم الجبن الرومى وغيره من المأكولات التى تأتى من أوروبا ،
فانه سيسبب للدولة متاعب كثيرة ، وسينقص من مهبتها فى أعين
الشعب ، وسيحرض هذا الشعب على مقاطعة التجارة الأجنبية ،
فتنقص إيرادات الدولة بنقصان الضرائب التى تؤخذ على هذه
التجارة الواردة .

والأفضل يدرك خطورة هذا التقرير الذى رفعه القاضى ابن
حديد اليه بشأن الطروشى ، فالطروشى ليس غريبا عليه ، فهو

يعرفه معرفة أكيدة منذ مقابلته الأولى له ، وهو يذكر جيدا موعظته الجريئة ، وما تضمنته من كلم قاس لاذع ، ومن جراءة نادرة في قول الحق ، لهذا أراد أن يحسم الشر قبل وقوعه ، فأرسل الى والى الاسكندرية يأمره بارسال الطرطوشى اليه .

وجاء الرسول الى الطرطوشى ، وأراد ان يعطيه فرصة يستعد فيها للسفر ، فقال له :

— « يسر حوائجك ، فانك تمشى يوم كذا » .

فقال الطرطوشى :

— « واى حوائج معى ؟ ريشى رياشى ، وطعامى فى

حوصلتى » .

وفى القاهرة قابل الأفضل الطرطوشى مقابلة طيبة ، ولكنه أمره بالبقاء فى الفسطاط ، وحدد اقامته فى مسجد الرصد جنوبى الفسطاط ، ومنع الناس من الاتصال به والأخذ عنه ، وعين له راتباً شهرياً بضعة دنائير يأخذها من متحصل جزية اليهود ، وسمح لخادمه بالإقامة معه .

ويبدو أن الطرطوشى قضى فى اعتقاله مدة طويلة تبلغ شهوراً ، فضجر من التضيق على حريته ، واشتد كرهه للأفضل ، تقول المراجع :

« وكان الشيخ يكره الأفضل ، فلما طال المقام به أى بالمعتقل — ضجر وقال لخادمه : الى متى نصبر ؟ أجمع لى المباح من الأرض ، فجمع له ، فأكله ثلاثة أيام ، فلما كان عند صلاة المغرب قال لخادمه : « رميته الساعة » ، فلما كان من الغد ركب الأفضل فقتل » .

ومعنى هذا ان الطرطوشى لما اشتد به الضيق أعلن امتناعه عن اكل شئ مما يأتية به الأفضل ، وأمر خادمه أن يجمع له شيئاً حلالاً من المباح من نبات الأرض ، وأكل هذا المباح ثلاثة أيام ،

ثم اعتكف يصلى ويتعبد ويبتهل الى الله ، فلما كان اليوم الثالث قتل الأفضل ، ومن الثابت أن الأفضل قتل في اليوم السابق لعيد الفطر من سنة ٥١٥ هـ .

وهذا بالتالى يحدد لنا المدة التى اعتقل فيها الطرطوشى ، فهو قد اعتقل فى أواخر سنة ٥١٤ هـ أو أوائل سنة ٥١٥ هـ ، وظل فى الاعتقال الى شوال من نفس السنة .

وانكشفت الغمة عن الطرطوشى ، فقد ولى الوزارة بعد الأفضل المأمون البطائحي ، وكان يعلم ما بين الرجلين ، فأخرج عن الشيخ وكرمه اكراما زائدا وقربه اليه .

٧ - الطرطوشى

والوزير المأمون البطائحي

وعاد الطرطوشى الى الاسكندرية ، واستأنف بها حياته ونشاطه العلمى ، ولكن هذه المحنة لم تنل منه ولم تفل من حدته ، فقد كانت تشغله دائما الأمور التى كان يراها منافية للشرع والعدل ، والتى سبق أن تقدم للأفضل يطلب تغييرها فلم يستمع اليه ، بل أبعده عن داره ومدينته وحدد اقامته ، وقد خشى الطرطوشى أن تأخذ الوزير الجديد عزة الحكم وأبهة السلطان فيسير على نهج سلفه .

لهذا بدأ بعد عودته الى الاسكندرية مباشرة يؤلف كتابا فى السياسة وفن الحكم ، وما يجب أن يكون عليه الراعى والرعية ، وأتم هذا الكتاب فى سنة كاملة ، وسماه « سراج الملوك » ، وفى شوال سنة ٥١٦ حمل الكتاب وسافر الى القاهرة ليقدمه الى الوزير الجديد المأمون البطائحي ، وليعيد الحديث معه فى الأوضاع السقيمة القائمة فى الدولة ، والتى لايقرها الشرع .

ولم يكد المأمون يسمع بوصوله - وكان بين يديه الكتاب وكبار الموظفين يعرضون شؤون الحكم - حتى أمر فى الحال برفع الدفاتر ،

وفض المجلس ، وأمر بمد السماط ، واستدعى الفقيه لمقابلته ، فلما دخل عليه ، وقف الوزير ، ونزل من مرتبته ، وجلس بين يدي الطرطوشى ، وفي هذا الدليل أكبر الدليل على عظم مكانة الطرطوشى ، وما كان يحسه الوزير نحوه من تبجيل واحترام ، فلم تكن من عادة الوزير في العصر الفاطمى أن يقوم لتحية القادم عليه مهما كانت مكانته ، ولكن المأمون لم يقنع بالوقوف لتحية الطرطوشى فقط ، بل ترك مرتبته ونزل فجلس بين يديه كما يجلس التلميذ بين يدي الأستاذ .

وبعد المقابلة أمر بانزاله في مكان خاص أعد له ، وأمر أن يرتب له خمسة دنائير في اليوم ، ولكن الطرطوشى رفضها ، وطلب أن يصرف له ديناران فقط ، وهو المبلغ الذى كان يصرف له أيام الأفضل .

ثم كان المأمون يستدعيه لمجلسه الخاص الذى يعقده يومى راحته من كل أسبوع ، فيستمع الى شكاواه ويجيب شفاعاته ، وصف هذه المقابلة وهذا الاكرام القرينى فأحسن الوصف ، قال :

« وفي شوال سنة ٥١٦ وصل الفقيه أبو بكر محمد ابن محمد الفهرى الطرطوشى من الاسكندرية بالكتاب الذى سماه (« سراج الملوك ») ، فأكرمه (اى المأمون) وأمر بانزاله في المجلس المهيأ للأخوة ، وتقدم برفع أدوية الكتاب وأوطية الحساب وسلام الأمراء ، وعمل السماط ، وسارع الى البادهنج ، واستدعى بالفقيه ، فلما شاهده وقف ونزل عن المرتبة ، وجلس بين يديه ، ثم انصرف ومعه أخو المأمون الى مكان أعد له ، وحمل اليه ما يحتاج اليه ، وأمر مشارف الجوالى أن يحمل اليه في كل يوم خمسة دنائير بمقتضى توقيع مقتضب ، فامتنع الفقيه ، وأبى أن يقبل غير الدينارين اللذين

كانا له في الأيام الأفضلية ، وصار المأمون يستدعيه في
يومي راحته ، ويبالغ في كرامته ، ويقضى شفاعاته » .
وحضر الطرطوشي لمقابلة المأمون ليقدم له كتابه « سراج الملوك »
الذي ألفه باسمه وأهداه إليه ، وليعرض عليه تلك الأمور الظالمة
المنافية للشرع التي سبق أن تحدث بشأنها في أيام الأفضل
فلم يستمع إليه .

أما الكتاب فله حديث خاص مفصل سنعود إليه بعد قليل في
فصل المؤلفات .

وأما تلك الأمور فكانت تتلخص في النظم المتبعة في الميراث :
فقد كان القضاة في مصر على العصر الفاطمي يتبعون المذهب
الشيوعي الاسماعيلي ، وهذا المذهب يقضى بأن ترث البنت كل
ما يترك أبوها اذا كانت وحيدة لا أخ لها أو اخت ، ويحرم العصابة
من المشاركة في الميراث .

وكانت النظم الوضعية المتبعة تقضى أيضا بأن يأخذ أمناء
الحكم - أي الموظفون القضائيون المشرفون على شؤون الميراث -
ربع العشر من أموال الأيتام عند توزيع التركة بمثابة أجر لهم .
وكان الطرطوشي يرى في الأمر الأول مخالفة للشرع في نظره ،
أي للمذاهب السنية ، فالمذاهب السنية ترى ألا ترث البنت الوحيدة
أكثر من نصف التركة ، وكان يرى في الأمر الثاني ظلما فاحشا
واغتصابا لحق الأيتام ، ومن واجب الحكومة أن تحافظ على
أموالهم وتصونها ، لا أن تقتطع جزءا منها لموظفيها .

وتناقش الطرطوشي طويلا مع المأمون في هذه الموضوعات ،
واعتذر المأمون عن الأمر الأول بأنه مما جرت العادة السابقة به ،
وأنه لم يحدث في أيامه ، وأنه يتفق ومذهب الخليفة الفاطمي ، فليس
من اليسير أن يوافق على تغييره ، لأنه يتصل بصميم المذهب
الشيوعي الاسماعيلي ، مذهب الدولة الرسمي .

وبعد نقاش طويل وافق المأمون على حل وسط يرضى المذهب

الرسمى للدولة ويرضى الطرطوشى ، فقد وافق على اصدار أمر للقضاة بأن يتبع فى الميراث مذهب الميت ، فان كان سنيا اتبع المذهب السنى ، وان كان شيعيا اتبع المذهب الشيعى .

أما الأمر الثانى ، فقد وافق عليه الوزير منذ اللحظة الأولى ، لأنه رأى فيه اجحافا حقيقيا بأموال اليتامى وحقوقهم ، وأمر بأن يصرف للموظفين - أمناء الحكم - راتب من خزانة الدولة بدلا من المبالغ التى كانوا يقتطعونها من أموال اليتامى .

وصدر سجل رسمى موقع عليه من الخليفة الأمر بأحكام الله والوزير المأمون البطائحي بهذه الأوضاع الجديدة ، وأرسل الى القضاة فى كل انحاء الدولة للعمل به .

ولما اطمأنت نفس الطرطوشى بهذا الاتفاق -أخذ - كما يقول المقرئى - فى ذكر بقية حوائج أصحابه ، فحقق له الوزير ما أراد ، وأجاب شفاعاته فيهم .

وبعد نحو شهرين من اقامته فى القاهرة أزمع العودة الى الاسكندرية ، فذهب الى الوزير يشكره ويودعه ، وتقدم اليه فى هذه المقابلة بمطلب آخر ، طلب الموافقة على انشاء مسجد جديد بالاسكندرية بظاهر الثغر على البحر ، فرحب الوزير بطلبه ، وكتب فى الحال الى ابن حديد قاضى الاسكندرية يأمره بالاشراف على بناء المسجد فى المكان الذى يتخيره الطرطوشى ، وأن « يبلغ فى اتقانه وسرعة انجازه ، وتكون النفقة عليه من مال ديوانه دون مال الدولة » .

ويقول المقرئى :

« وتوجه - أى الطرطوشى - فبنى المسجد المذكور

على باب البحر » .

وباب البحر كان قريبا من ميدان المنشية الحالى ، وهذا المسجد للأسف من المساجد التى هدمت وتلاشت معالمها ، فلا وجود له الآن فى مدينة الاسكندرية .

الباب الرابع

تلاميذ الطرطوشي

تقدمة .

- ١ - سند بن عنان .
- ٢ - أبو الطاهر بن عوف .
- ٣ - أبو بكر بن العربي .
- ٤ - المهدي بن تومرت .

تلاميذ الطروشى

تقدمة : -

علمان كبيران اقتسما الزعامة الفكرية فى العالم الاسلامى فى
اواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجريين : الفزالى
فى المشرق ، والطروشى فى الاسكندرية والمغرب ، وقد تتلمذ على
الطروشى - كما أسلفنا عدد كبير من طلبة العلم من أبناء
الاسكندرية ومن الوافدين عليها وبخاصة الأندلسيين والمغاربة ،
فقد كان هؤلاء يقفون بالاسكندرية - وهم فى طريقهم الى الحج -
وقفة طويلة ويترددون على مدرسة الطروشى وحلقات العلم التى
يعقدها معتزين بمواطنهم فخورين به يرتشفون من مناهل علمه
ويسألونه الاجازة لهم ولوطنين آخرين لم تتح لهم فرصة التلمذة
المباشرة عليه .

وكان منهاج الطروشى الأول فى الحياة الورع والتقوى
والتمسك الشديد بأهداب الدين ، وكانت وسيلته الكبرى التى
التزم بها هى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى عنف وصرامة ،
وقد أخذ تلاميذه بهذا المنهج وبهذه الوسيلة ، وكان أثره فيهم قويا
واضحا ، ولهذا تخرج عليه الكثيرون ، ونبغ من بينهم رجال
بارزون من العلماء والمصلحين ، وقد اخترنا من بين الكثرة الكثيرة
من هؤلاء التلاميذ أربعة من نوابغهم ، اثنين من أبناء الاسكندرية
واثنين من أبناء المغرب والأندلس ، ورأينا أن تقدم لكل منهم هنا
ترجمة مختصرة لنبين الى أى حد كان أثر هذا الأستاذ الكبير فى
تلاميذه وفى المجتمع الاسلامى بوجه عام .

أما التلميذان السكندريان فهما : العالم والفقير الكبير القاضى
سند بن عنان الذى خلفه فى مدرسته وحلقته وجلس على كرسى

الأستاذية من بعده ، والفقيه المالكي كبير علماء الاسكندرية طوال القرن السادس الهجرى أبو الطاهر بن عوف .

وأما التلميذان المغربيان فهما العالم الكبير قاضى اشبيلية أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربى ، والداعية الأكبر المهدي ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين .

١ - سند بن عنان

هو أبو على سند بن عنان بن ابراهيم بن حريز بن الحسين ابن خلف الأردى .

كان أنبغ تلاميذ الطرطوشى وأقربهم اليه ، وكان كأستاذه مالكي المذهب ، وقد سمع منه ، ولازم حلقتة سنين طويلة ، ولم يأخذ عن أستاذه العلم وحده بل قبس من أخلاقه وفضله ، ومن فلسفة الزهد التى أخذ الطرطوشى بها نفسه ، ولهذا وصفه ابن فرحون فى كتابه « الديباج المذهب » بقوله :

« كان من زهاد العلماء وكبار الصالحين ، فقيها فاضلا ، تفقه بالشيخ أبى بكر الطرطوشى » .

وروى فقيه آخر هو أبو القاسم بن مخلوف بن عبد الله ابن عبد الحق بن جاره قال :

« أخبرنى من أثق به انه رأى الفقيه أبا على سند بن عنان ، قال فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال : عرضت على ربى فقال لى أهلا بالنفس الطاهرة الزكية العالمة » .

ووصفه عالم مصرى فى القرن السابع الهجرى هو تقي الدين ابن دقيق العيد بقوله :

« كان - أى سند بن عنان - فاضلا من أهل النظر » .

وكان سند بن عنان كأستاذة الطرطوشي يقول الشعر أحيانا ،
وقد روى ابن فرحون بيتين من شعره ، قال : ومن نظم سند
رحمه الله :

وزائرة للشيب حلت بمفرقى

فبادرتها بالنتف خوفا من الحتف

فقالت :

على ضعفى استطلت ووحدتى ؟

رويدك للجيش الذى جاء من خلفى

واشتغل سند بن عنان بالتأليف ، ذكرت المراجع انه ألف كتابا
ضحما فى شرح « المدونة » - وهى من أمهات الكتب فى فقه مالك -
وسمى سند شرحه هذا « الطراز » وكان فى ثلاثين مجلدا ، غير انه
توفى قبل اتمامه .

وقد رشحت هذه المؤهلات جميعا سند بن عنان لأن يخلف
أستاذة الطرطوشي ، فجلس فى حلقة ومدرسته بعده يلقى الدروس
فى العلوم المختلفة ، وخاصة فى فقه مالك ، قال ابن فرحون :

« وجلس - سند بن عنان - لالقاء الدرس بعد
الشيخ أبى بكر الطرطوشي ، وانتفع الناس به » .

وظل سند بن عنان (١) يدرس احدى وعشرين سنة بعد وفاة
أستاذة الطرطوشي الى أن توفى سنة ٥٤١ هـ ، ودفن بالقرب من
قبر الطرطوشي ، ولا زال مسجد القاضى سند بن عنان موجودا
حتى اليوم داخل المسجد المسمى باسمه فى شارع الباب الأخضر
(أو شارع السكة الجديدة) بالاسكندرية .

(١) انظر ترجمته فى : (ابن فرحون : الديباج الذهب) و (جمال الدين
الشيال : اعلام الاسكندرية فى العصر الاسلامى) .

٢ - أبو الطاهر بن عوف

اسماعيل بن مكى

أبو الطاهر بن عوف هو اسماعيل بن مكى بن اسماعيل ابن عيسى بن عوف الزهرى ، وينتهى نسبه الى عبد الرحمن ابن عوف الصحابى الجليل ، وقد كان شيخ المالكية فى مدينة الاسكندرية طوال القرن السادس الهجرى (١٢ م) دون منازع ، فقد ولد سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢) وتوفى سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥) عن ست وتسعين سنة .

وصفه السيوطى بأنه « صدر الاسلام » ، وقال انه تفقه على أبى بكر الطرطوشى وسمع منه ، وتخرج به الأصحاب .
وقال أبو الحسن على بن الحميرى :

« كان ابن عوف - رحمه الله تعالى - امام عصره وفريد دهره فى الفقه على مذهب مالك رحمه الله ، وعليه مدار الفتوى ، وجمع الى ذلك الورع والزهد وكثرة العبادة ، والتواضع التام ، ونزاهة النفس » .

وقال عالم الاسكندرية ومؤرخها منصور بن سليم :

« كان - ابن عوف - من العلماء الأعلام ، ومشايخ الاسلام ، ظاهر الورع والتقوى ، كتب عنه الحافظ السلفى ، وروى عنه شرف الدين ابن المقدسى » .

وبيت ابن عوف بيت مصرى سكندرى أصيل ، نبغ فيه أكثر من عالم ملأوا المدينة علما ، قال منصور بن سليم :

« وبيت ابن عوف بشغر الاسكندرية بيت كبير شهير بالعلم ، كان فيه جماعة من الفقهاء ، قال الشيخ شهاب الدين بن هلال : سمعت أنهم اجتمع منهم سبعة فى وقت واحد ، وكانوا اذا دخلوا على الامام أبى على

سند بن عنان - مؤلف كتاب الطراز - يقول : أهلا
بالفقهاء السبعة ، تشبيها لهم بالفقهاء السبعة أئمة
المدينة النبوية » .

وقد أخذ ابن عوف عن الكثيرين من الفقهاء المالكية بالاسكندرية ،
وخاصة عن أبي بكر الطرطوشي ، ولا عجب في هذا ، فقد كان
ابن عوف ربيب الطرطوشي ، وكان الطرطوشي تزوج خالة ابن عوف .

وشهد أبو الطاهر بن عوف نهاية الدولة الفاطمية الشيعية وقيام
دولة صلاح الدين في مصر في سنة ٥٦٧ هـ ، وقد زار صلاح الدين
الاسكندرية في سنة ٥٧٧ هـ ، وحرص في هذه الزيارة أن يحضر
هو وأولاده وكبار رجال دولته دروس أبي الطاهر بن عوف ، وسمعوا
عليه جميعا « موطأ مالك » بروايته عن أستاذه الطرطوشي .

وأصبحت لابن عوف عند صلاح الدين منذ ذلك الحين مكانة
كبيرة ، يجله ويحترمه ، ويقدره ويوقره ، وإذا اعترضته مشكلة
من مشاكل الدين أو الدولة أرسل اليه يسأله الرأي والفتوى ،
يؤكد هذا قول ابن فرحون :

« وكان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب

يعظم ابن عوف ويراسله ويستفتيه » .

وكان صلاح الدين يستجيب لرأي ابن عوف ومشورته ، فقد
أسرع بتلبية رغبته عندما أشار عليه بإعادة ضريبة الصادر ، وهي
ضريبة كانت تفرض على تجارة الفرنج الصادرة عن الاسكندرية ،
وتوزع حصيلتها على فقهاء الثغر .

وقد أشارت المراجع الى أن نشاط ابن عوف لم يكن مقتصورا
على التدريس وحسب ، بل كان له نشاط مماثل في ميدان التأليف ،
فقد قال السيوطي : « وله مؤلفات » ، وقال ابن فرحون : « وله
مصنفات » ، ثم أشار الى اثنين من هذه المصنفات ، إقال :

« قال ابن هلال : رأيت له مجلدا في الرد على المتنصر ، وهو رجل يدعى العلم وليس من أهله ، صنف كتابا أسماه « الفاضح » واعتقد أنه نقض به الشريعة المحمدية ، وادعى فيه تناقضا في الأحكام ، وكان جاهلا مصحفا ، فمما صحف قوله - صلى الله عليه وسلم - « ثمرة طيبة وماء طهور » بقوله « خمرة طيبة » ، وقال : انظر كيف يقول : « خمرة طيبة » وهو يحرم شرب الخمر .

وللشيخ أبي الطاهر تذكرة التذكرة في أصول الدين ، وغير ذلك من التأليف .

هذا هو ابن عوف ، أما مدرسته فقد أشار إليها المقرئ في كتابه « انعاظ الحنفا » ، فقال في حوادث سنة ٥٣٢ هـ :

« وفيها بنى الوزير رضوان المدرسة المعروفة في ثغر الاسكندرية ، وجعل في تدريسها الفقيه أبا طاهر ابن عوف » .

فتكون بذلك أول مدرسة (١) أنشئت في مدينة الاسكندرية ، بل في مصر كلها في العصر الاسلامي ، فقد سبقت المدرسة السلفية باثنتي عشرة سنة .

وقد عثرت لحسن الحظ في « صبح الأعشى » على السجل الصادر عن الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله بتعيين ابن عوف مدرسا لهذه المدرسة ، وهو سجل ذو أهمية كبرى ، لأنه السجل الوحيد الذي وصلنا من العصر الفاطمي كله بتعيين مدرس ، وهو الى هذا يتضمن معلومات جديدة عن هذه المدرسة التي لا تكاد نعرف عنها شيئا .

(١) انظر : جمال الدين الشيال : أعلام الاسكندرية في العصر الاسلامي ، ص ١٠٦ وما بعدها .

وفي سنة ٥٨١ هـ توفي ابن عوف (١) ، ودفن في الاسكندرية ،
ولكننا نبحت اليوم عن مدرسته أو عن قبره فلا نجد لهما أثرا ،
وهكذا فعل النسيان والاهمال بعالم ملأ المدينة علما ، وقضى حياته
الطويلة كلها يعلم ويدرس ويؤلف وينفع الناس .

٣ - أبو بكر بن العربي

هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن العربي المعافري الاشبيلي
ولد في اشبيلية سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٦) ، وصحب أباه في
رحلته الى المشرق سنة ٤٨٥ (١٠٩٢) وكان حينذاك في السابعة
عشرة من عمره ، وتلمذ ابان هذه الرحلة على كبار علماء مصر
والحجاز والشام والعراق : ففي بغداد حضر دروس أبي حامد
الغزالي ، وفي بيت المقدس لازم أبا بكر الطرطوشي (قبل انتقاله الى
الاسكندرية واستقراره بها) وتلمذ عليه .

واستغرقت رحلته هذه ثماني سنوات توفر فيها على دراسة
علوم الدين المختلفة ، وبخاصة الفقه والحديث والتفسير ، وفي
سنة ٤٩٣ ترك بغداد الى الاسكندرية ، فأقام بها وقتا لازم خلاله
أستاذه القديم أبا بكر الطرطوشي فاستزاد من علمه ووثق علاقته به .
ولما اعتزم ابن العربي العودة الى وطنه حمله أستاذه الطرطوشي

(١) راجع ترجمته في :

(ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ٩٥ - ٩٦) و (أبو شامة : كتاب
الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٦ و ج ٢ ، ص ٢٤ ؛ والدليل على الروضتين ،
ص ١٥٦) و (القرظي : مخطوطة انماض الحنفا ، ص ١٢٨ ب ؛ السلوك ،
ج ١ ، ص ١٤٤ و ١٩١) و (ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ،
ص ١٢٧) و (السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٩٢) و (الصفدي :
نكت الهميان ، ص ١٨٥) و (ابن واصل : مفرج الكروب ، نشر الشيال ،
ج ٢ ، ص ١١٢) و (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ٤٥٨ - ٤٥٩)
و (جمال الدين الشيال : اعلام الاسكندرية في العصر الاسلامي ، ص ١٠٣-١٢٧) .

رسالة الى سلطان المغرب المرابطى أبى يعقوب يوسف بن تاشفين
قدم اليه فيها النصائح بأن يلتزم حدود الدين فى أوامره ونواهيه ،
وأن يرعى الله فى رعيته ، وأن يفتح بابه لكل صاحب مظلمة ،
ثم أوصى السلطان خيرا بتلميذه ابن العربى فقال مزكيا له ومقرظا
لعلمه ومواهبه :

« والفقيه أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربى
ممن صحبنا ، وهو ممن جمع العلم ووعاه ، ثم تحقق به
ورعاه ، وناظر فيه وجد حتى فاق أقرانه ونظراه ، ثم
رحل الى العراق فناظر العلماء ، وصحب الفقهاء ،
وجمع من مذاهب العلم عيونها ، وكتب من حديث
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وروى صحيحه
وثابته ، والله تعالى يؤتى الحكمة من يشاء ، وهو
وارد عليك بما يسرك ، فاشدد عليه يدك ، واحفظ
فيه وفى أمثاله وصية الله سبحانه لنبيه عليه السلام ،
قال الله سبحانه - وهو أجل القائلين - « وإذا جاءك
الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على
نفسه الرحمة » (١) .

وعاد أبو بكر بن العربى الى وطنه محملا بهذه الوصية والتزكية
من استأذنه فأكرمه السلطان وعينه قاضيا لمدينته اشبيلية ، يقول
ابن بشكوال فى كتابه « الصلة » :

« فنفخ الله به أهله لصرامته وشدته ونفوذ أحكامه ،
وكان له فى الظالمين سورة مرهوبة ، ثم صرف عن
القضاء ، وأقبل على نشر العلم وبثه » .

(١) نشرنا هذه الرسالة كاملة لأول مرة ملحقة بهذا الكتاب .

وكان ابن بشكوال نفسه من تلاميذه ، وقرأ عليه الكثير من كتبه ومؤلفاته .

وكثر حامدو ابن العربي (١) وشانئوه ، ووشى به الواشون فقبض عليه وسجن في مدينة مراكش نحو عام ، ولما أطلق سراحه خرج قاصدا مدينة فاس ، فمات في طريقه إليها في سنة ٥٤٣ هـ ، فحمل إليها ودفن بها ، قال عنه ابن بشكوال انه :

« ختام علماء الأندلس ، وآخر أئمتها وحفاظها » .

وترجم له النباهي في « تاريخ قضاة الأندلس » ؛ وله مؤلفات كثيرة في الحديث والفقه والأصول والتفسير والأدب والتاريخ ، وقد طبع بعض هذه المؤلفات مثل « العواصم من القواصم » و « أحكام القرآن » ؛ ولا زال البعض الآخر مخطوطا ، مثل : « عارضة الأحـوذى في شرح الترمذى » و « القبس في شرح الموطأ » و « الانصاف في مسائل الخلاف » و « أعيان الأعيان » و « قانون التأويل » .. الخ .

المهدي بن تومرت

(٤٨٥ - ٥٢٤ = ١٠٩٢ - ١١٣٠)

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت المصمودي البربري الجنس ، الملقب بالمهدي ، مؤسس دولة الموحدين ، ينتمي الى قبيلة هرغة احدى قبائل جبل السوس بالمغرب الأقصى ، ولد ونشأ في

(١) راجع ترجمته بالتفصيل في :

(السيوطي : طبقات الحفاظ) و (ابن خلكان : وفيات الأعيان)
(المقرئى : نفع الطيب) و (النباهي : تاريخ قضاة الأندلس) و (ابن فرحون : الديباج الذهب) و (ابن بشكوال : الصلة) و (ابن العربي : العواصم والقواصم ، مقدمة محب الدين الخطيب) و (الزركلى : الأعلام) .

قبيلته ، ثم رحل الى الشرق طلبا للعلم ، فانتهى الى العراق ودرس بالمدرسة النظامية بعد افتتاحها وحضر دروس ابي حامد الغزالي ، وادى اiban رحلته هذه فريضة الحج وجاور بمكة زمنا ، وكان ورعا تقيا منصرفا الى العبادة شديدا على من يخالف اوامر الدين ، فاذا رأى منكرا حاول أن يمنعه بلسانه ويديه فثار به جماعة من أهل مكة ، فغادرها الى مصر ، وقصد مدينة الاسكندرية واتصل فيها بأبي بكر الطرطوشي وتلمذ عليه ، وهناك حاول أن يفعل ما فعله في مكة وأن يقيم نفسه آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر فأخرج من المدينة وأبحر الى المغرب ، ونزل في طريقه بالمهدية وهناك أعاد الكرة فكسر ما رآه فيها من آلات اللهو وأواني الخمر ، وانتقل منها الى بجاية ، فأخرج منها الى قرية « ملالة » ، فلقى بها عبد المؤمن ابن علي القيسي الكومي ، وهو شاب نابه ذكي ، فاتخذه مريدا ، واتفقا معا على الدعوة له باعتباره المهدي المنتظر ، وانتقلا الى مدينة مراکش ، وحضر ابن تومرت مجلس علي بن يوسف بن تاشفين ، وأنكر عليه بدعا ومنكرات ، وغادر ابن تومرت مراکش الى موضع حصين من جبال « تينملل » ، وبدأ يعظ الناس هناك ، فأقبلوا عليه وأيدوه ، فأخذ يحرضهم على عصيان ابن تاشفين ، ونشب القتال بينهم وبين جند الدولة ، فقتلوا نفرا منهم ، وقوى أمر ابن تومرت منذ ذلك الوقت ، فجاهر بالدعوة ولقب نفسه بالمهدي القائم بأمر الله .

ولم يعمر ابن تومرت طويلا ، وتوفي سنة ٥٢٤ هـ قبل أن يتم له فتح مدينة مراکش ، ولكنه كان قد مهد الأمور ووضع القواعد للدولة الجديدة ، فأتم الفتوح بعده صاحبه عبد المؤمن بن علي المؤسس الحقيقي للدولة الموحدية .

وكان ابن تومرت أسمر ربعة عظيم الهامة حديد النظر داهية شديد الذكاء فصيحاً أدبياً ، وله مؤلفات منها : « كنز العلوم »

وأهمها « كتاب أعز ما يطلب » وقد أودعه أصول دعوته ، وترجمه
الى اللغة البربرية .

وقد كان ابن تومرت (١) ينسب نفسه الى الرسول عليه السلام
ولكن هذا النسب مشكوك فيه ولا تأخذ به معظم المراجع .

(١) راجع ترجمته بالتفصيل في :

(ابن خلكان : وفيات الأعيان) و (السلاوى : الاستقصا) و (أخبار
المهدى بن تومرت ، طبع باريس ١٩٢٨) و (ابن خلدون : كتاب العبر)
و (ابن الخطيب : رقم الحلل) و (ابن الأثير : الكامل) و (الصفدى : الوافى
بالوفيات) و (محمد عبد الله عنان : تراجم اسلامية) و (الزركلى : الأعلام) .

البابُ الخامس

مؤلفات أبي بكر الطرطوشي

مؤلفات أبي بكر الطرطوشى

أشرنا من قبل الى أن الطرطوشى قدم الى الاسكندرية حوالى سنة ٤٩٠ أو ٤٩١ هـ وقد بلغ الأربعين من عمره ، وأنه قضى هذه السنوات الأربعين متنقلا مرتحلا فى بلدان المغرب والمشرق الاسلاميين يطلب العلم أولا ، وينشر العلم ويشغل بالتدريس ثانيا (وخاصة فى المرحلة التى قضاها فى الشام) .

فلما وصل الى الاسكندرية استقر بها ، ولم يكن يغادرها الا لزيارة القاهرة ، ثم يعود ثانية الى مدرسته وتلاميذه وحياته العلمية الغنية فى الاسكندرية .

وهذه الحياة القلقة الثائرة غير المستقرة لم تمنع الطرطوشى من التأليف ، فقد ذكرت المراجع المختلفة التى ترجمت له أن له تأليف كثيرة : وأغلب الظن أنه كتب بعضا من هذه المؤلفات أثناء مقامه فى الشام ، وأنه ألف الغالبية العظمى منها أثناء مقامه فى الاسكندرية ، فان حياة الارتحال والطلب الأولى فى الأندلس والحجاز والعراق والشام لم تتح له الفرصة للتفرغ للتأليف ، كما أن سن الأربعين التى بلغها عند نزوله بالاسكندرية هى سن النضوج الفكرى ، يضاف الى ذلك أيضا هذه الحياة المستقرة التى حياها فى الاسكندرية ، وخاصة بعد أن تزوج بها وأنجب ، واطمأن الى معيشة هادئة فى كنف هذه الزوجة السكندرية الصالحة .

هذه الأسباب تؤيد ترجيحنا أن الطرطوشى وضع معظم مؤلفاته ابان الحقبة التى عاشها فى الاسكندرية ، ومداهما نحو الثلاثين عاما ، فهو قد نزل بها وسنه نحو الأربعين ، وتوفى بها فى سنة ٥٢٠ هـ وهو فى سن السبعين ، ويؤكد ترجيحنا السابق الملابس والظروف

التي ألفت فيها وبسببها معظم كتب الطرطوشي ، فسئرى عند استعراضنا لها أن الأسباب التي دفعتة الى تأليفها كانت ظروفًا وأحداثًا تتصل بالمدة التي أقضاها في مصر بوجه عام ، وفي الإسكندرية بوجه خاص .

ويبدو واضحًا من قائمة المؤلفات التي ذكرتها المراجع ، ونسبتها الى الطرطوشي أن الرجل كان نشيطًا منتجًا خصب الانتاج ، وقد أحصيت له اثنين وعشرين مؤلفًا ، الموجود منها تسعة ، والباقي مفقود .

ومن هذه المؤلفات التسعة طبع اثنان فقط ، والسبعة الأخرى ما زالت مخطوطة .

وبعض هذه المؤلفات يتصل بعلوم التفسير ومسائل الخلاف والفقه - وفقه مالك بوجه خاص - ، والبعض الآخر يتناول بالبحث علم السياسة وفن الحكم ، والمجتمع وأدواءه وأحواله .
وفيما يلي عرض تحليلي تفصيلي لهذه الكتب :

١ - أولها : « مختصر تفسير الثعالبي » (١) :

والثعالبي - أو الثعلبي - هو أبو اسحاق أحمد بن محمد ابن إبراهيم النيسابوري المتوفى سنة ٤٢٧ هـ ، قال عنه ابن خلكان :

« كان أوحد زمانه في علم التفسير ، وصنف التفسير الكبير الذي فاق غيره من التفاسير ، وله كتاب العرائس في قصص الأنبياء » .

وهذا التفسير الكبير الذي فاق غيره من التفاسير هو الذي أسماه صاحبه « الكشف والبيان في تفسير القرآن » ، وهو الذي

(١) ذكره (ابن خير في الفهرست) و (ابن فرحون في الديباج المذهب) و (القرى في نفع الطيب) و (بروكلمان) .

اختصره الطرطوشي في كتاب خاص ، وقد قام بتأليف هذا المختصر أثناء مقامه في الشام ، وكان يدرسه في المسجد الأقصى ببيت المقدس ، ذكر ذلك العالم الأندلسي أبو بكر محمد بن خير في « فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين » ، قال :

« كتاب الكشف والبيان في تفسير القرآن ، تصنيف الأستاذ أبي اسحاق أحمد بن محمد الثعلبي - رحمه الله .

كتاب اختصاره للشيخ الامام أبي بكر محمد بن الوليد الفهرى الطرطوشي - رحمه الله - ، حدثني بمختصره الشيخ القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله ابن العربي - رحمه الله - اجازة ، قال : حدثني به مختصره شيخنا الزاهد الامام أبو بكر الفهرى الطرطوشي في **مهد عيسى بالفسيفساء من المسجد الأقصى في رمضان سنة ٤٨٧** بحضرتي وقراءتي له عليه « (١) .

وتوجد في دار الكتب المصرية بالقاهرة نسخة خطية من الجزء الثاني من هذا المختصر (٢) .

(١) فهرست ابن خير ، ص ٥٩ .

(٢) وهذا نص ما ورد على صفحة العنوان من هذه المخطوطة :

« الجزء الثاني من مختصر كتاب الكشف والبيان في تفسير القرآن الذي هو تصنيف الشيخ الامام أبي اسحق أحمد بن محمد بن محمد بن ابراهيم الثعلبي - رحمه الله - ، مما عنا (كذا) باختصاره وحذف أسانيده وتكراره الشيخ الفقيه الامام أبو بكر محمد بن الوليد بن خلف بن سليمان بن ... الفهرى الطرطوشي رضي الله عنه » .

وكتب تحت العنوان بخط مخالف : « وقف هذا الجزء وما بعده وتصدق به ابتغاء لوجه الله تعالى وطلبا لمرضاته الامير احمد اغا باش جاويش تفكجيان ، وجمل مقره في خزانة جامع شيخون وتحت يد امامه ، تقبل الله منه ذلك بتاريخ ١١٩٣ .

٢ - والكتاب الثاني تسميه المراجع : « الكتاب الكبير في مسائل الخلاف » (١) أو « التعليقة الكبيرة في الخلافات » :

وذكر أحد المراجع أن هذا الكتاب كان كبيراً يقع في خمسة أجزاء . والخلاف - كما نعلم - أحد العلوم الأولى التي بدأ الطرطوشي يتلقى أصولها منذ صباه المبكر في وطنه الأول الأندلس على استاذة أبي الوليد الباجي ، والتي استزاد منها حتى أتقنها أثناء تحصيله في بغداد والبصرة وغيرهما من مدن العراق ، وبعد أن تم نضجه الفكري في الاسكندرية وأصبح أستاذاً ومرجعاً في هذا العلم وضع هذا المؤلف الكبير في مسائل الخلاف في خمسة أجزاء .

٣ - أما الكتاب الثالث فهو « شرح لرسالة الشيخ أبي زيد القيرواني » :

وأبو محمد عبد الله بن أبي زيد عالم من أكبر علماء الفقه المالكي الأوائل الذين وضعوا أسسه وقواعده ، وقد عاش في القرن الرابع الهجري ، وسكن القيروان مدة ، وكان اماماً للمالكية في وقته ، وهو جامع مذهب مالك وشارح أقواله ، حتى لقد عرف باسم « مالك الصغير » ، وقد توفي سنة ٣٨٩ هـ ، وله تأليف كثيرة أهمها : « الرسالة في الفقه المالكي » .

وقد شرح الرسالة كثيرون من علماء المالكية ، والطرطوشي - كما نعلم - نشأ مالكي المذهب ، وظل طول حياته مالكي المذهب ، وعاش الفترة الأخيرة من حياته في مدينة الاسكندرية حيث كان يسود المذهب المالكي ، ومن المرجح إذن أن يكون هذا الشرح بعض دروسه في المذهب المالكي التي كان يلقاها في مدينة الاسكندرية .

(١) ذكره : (الحميرى في صفة جزيرة الأندلس) و (ابن فرحون في الديباج المذهب) و (المقرئ في نفع الطيب) و (الزركلى في الأعلام) و (حاجى خليفة في كشف الظنون) .

٤ - والكتاب الرابع لم تذكره المراجع التي أرخت للطروشى وأحصت مؤلفاته ، ولكن الطروشى نفسه أشار إليه في أكثر من موضع من كتابه « سراج الملوك » ، وسماه هناك : « **كتاب الأسرار** » :

قال مرة أثناء حديثه عن العقل :

« قد ذكرت في « **كتاب الأسرار** » حقيقة العقل وأقسامه ، ومحله وأحكامه ، بما لا مزيد عليه ، ونذكرها هنا منافع ومداركه ولباب ما تحرر من القول فيه .. الخ » (١) .

وقال مرة أخرى عند كلامه عن القضاء والقدر :

« وقد كنت جمعت فيه كتابا من جملة **كتابي في الأسرار** ، هل التوفيق مكتسب أو موهبة بلا سبب فلا مزيد عليه .. » (٢) .

ف للطروشى اذن كتاب اسمه « **كتاب الأسرار** » ، ويبدو من هذه الشواهد أن الكتاب يتناول موضوعات تتصل بالإنسان والعقل ، وبالقضاء والقدر ، وما يشبهها من موضوعات .
٥ - والكتاب الخامس ذكره ثلاثة من المؤرخين ، ولكنهم لم يحددوا عنوانه .

ذكره حاجى خليفة في « كشف الظنون » ، فقال : ومن بين كتب الطروشى « **كتاب يعارض به كتاب الاحياء للغزالي** » (٣) .
وقال الحميرى في « صفة جزيرة الأندلس » عند ترجمته للطروشى :

(١) سراج الملوك ، ص ١٢٢ .

(٢) سراج الملوك ، ص ٣٤٩ .

(٣) وذكره أيضا : الزركلى في الاعلام عند ترجمته للطروشى .

« وعاصر الغزالي ، وله في احيائه كلام ، وكان

منحرفا عنه سيء الاعتقاد فيه » .

وذكر الضبي في « بغية الملتمس » ، فقال :

« وله كتاب كبير يعارض به كتاب الاحياء ، رأيت منه قطعة يسيرة » وقد بحثت كثيرا عن هذا الكتاب فلم أعثر له على اثر ، وانما عثرت على ما يفيد أن الطروشى كتب رسالة لصديق له يذكر فيها أنه اجتمع بالغزالي وتحدث اليه وناقشه في موضوعات كثيرة ، ويشير الى رأيه في الاحياء وينقده .

وقد ذكرنا من قبل أن الطروشى لم يقابل الغزالي في بغداد : وأنه حاول مقابله في بيت المقدس فلم يوفق ، ولكننا نرجح أن العالمين تقابلا في مدينة الاسكندرية بعد ذلك ، فان المراجع التى ترجمت للغزالي تذكر أنه زار الاسكندرية في السنوات الأخيرة من حياته ، وأنه كان يزعم السفر منها الى بلاد المغرب لزيارة الأمير يوسف بن تاشفين ، ولكنه تلقى أثناء مقامه من الاسكندرية خبرا بموت يوسف بن تاشفين : فعدل عن عزمه ، وعاد الى وطنه « طوس » .

ونحن نعرف أن يوسف بن تاشفين توفي سنة ٥٠٠ هـ ، وفي هذه السنة كان الطروشى يقيم في الاسكندرية ، فلا بد اذن أن يكون العالمان قد تقابلا في الاسكندرية في هذه السنة .

وللسيد محمد المرتضى الزبيدى - وهو واحد من كبار علماء مصر في القرن الثامن عشر - شرح كبير لكتاب « احياء علوم الدين » يقع في عشرة أجزاء كبار ، سماه : « اتحاف السادة المتقين بشرح أسرار احياء علوم الدين » ، وقد عرض في مقدمته للعلماء السابقين الذين تناولوا احياء الغزالي بالدراسة أو بالمدح والتقريظ ، أو بالنقد والتجريح ، وذكر من بين الناقدين العالمين المالكيين : المازرى ، والطروشى ، وعرض أولا كلام المازرى في الاحياء ، ثم ناقشه ورد عليه ، واستطرد فعرض لكلام الطروشى وقال :

« هذا كلام المازري ، وسبقه الى قريب منه من المالكية الامام أبو الوليد الطرطوشي نزيل الاسكندرية ، فذكر في رسالته الى أبي مظفر (١) :

« فأما ما ذكرت من أمر الغزالي فرأيت الرجل وكلمته ، فرأيته من أهل العلم ، قد نهضت به فضائله ، واجتمع فيه العقل والفهم وممارسة العلوم طول عمره ، وكان على ذلك طول زمانه ، ثم بدا له البعد عن طريق العلماء ، فدخل في غمار العمال ، ثم تصوف ، فهجر العلوم وأهلها ، ودخل في علوم الخواطر وأرباب القلوب ووساوس الشيطان ، ثم شابها بآراء الفلاسفة ورموز الحلاج ، وجعل يطعن على الفقهاء والمتكلمين ، فلقد كاد ينسلخ من الدين ، فلما عمل الاحياء عمدا يتكلم في علوم الأحوال ومرامز الصوفية ، وكان غير أنيس بها ، ولا خبير بمعرفتها ، فسقط على أم رأسه ، وشحن كتابه بالمعلومات .. الخ » .

هذه هي الفقرة التي نقلها المرتضى الزبيدي لعرض رأى الطرطوشي في الغزالي واحيائه ، ومنها نفهم أن الطرطوشي لم يؤلف كتابا في معارضة الاحياء ، وانما كتب رسالة الى صديق له هو ابن مظفر أبدى فيها رأيه في الغزالي وكتابه ، ومنها يتأكد كذلك استنتاجنا السابق أن العالمين تقابلا ودارت بينهما مناقشات ومساجلات علمية .

ولم يستطع الطرطوشي في أول الرسالة أن يخفي إعجابه بالغزالي فصرح بأن الرجل من أهل العلم ، وقد اجتمع فيه العقل والفهم

(١) انظر ما كتبه العالم الإسباني Asin عن هذه الرسالة في :

asin (m) : Un Laquin siciliano lontradidor de algazab (lntenario della nascita de m chele amari : Estrauo. Palermo, 1910).

وممارسة العلوم طول عمره ، ولكنه لم يلبث أن استدرك فقال ما قال
يجرح الرجل وكتابه .

والذى نراه أن الطرطوشى كان متحاملا ومتجنبيا على الغزالى ،
وتفسير هذا التحامل بسيط ، فهو نوع من الفيرة التى تنشأ عادة
بين العلماء المتعاصرين : فالرجلان ولدا فى سنة واحدة ، وان كان
الغزالى ولد فى طوس فى أقصى الشرق ، والطرطوشى ولد فى طرطوشة
فى أقصى الغرب ؛ والغزالى شافعى ، والطرطوشى مالكى ؛ والرجلان
اشتغلا بالعلم وتحصيله ودراسته وتدريسه فى الحقبة الأولى من
حياتهما ، ثم ركنا الى حياة الزهد والتصوف حتى عدا من المتصوفة
الزاهدين فى أخريات حياتهما ؛ والطرطوشى أدرك شهرة وذاع
صيته فى الشام أولا ثم فى الاسكندرية ثانيا ؛ والغزالى طبق ذكره
الافاق فى جميع أنحاء العالم الاسلامى ، وخاصة بعد تأليفه « المنقذ
من الضلال » و « احياء علوم الدين » ، وقد سبقته شهرته الى
الاسكندرية قبل وصوله اليها ، ولم يكن للطرطوشى وقتذاك مؤلف
يستطيع أن يطاول به « الاحياء » .

لهذا جاء نقد الطرطوشى للغزالى وكتابه ضعيفا متهافتا ،
لا يزيد على أن يضم بعض الاتهامات التى لا تقوم على دليل ، ولهذا
لم يعن المرتضى الزبيدى بالرد على كلام الطرطوشى كثيرا ، بل نقل
ردا لعالم آخر عليه ، نقل رد السبكي الذى أورده فى « طبقات
الشافعية » ، قال السبكي :

« وأما كلام الطرطوشى فمن الدعاوى العارية عن
الدلالة ، ولا أدرى كيف استجاز فى دينه أن ينسب هذا
الحبر الى أنه دخل فى وساوس الشيطان ، ولا من أين
اطلع على ذلك .

وأما قوله : شابها بآراء الفلاسفة ورموز الحلاج ،
فلا أدرى أى رموز فى هذا الكتاب غير اشارات القوم
التي لا ينكرها عارف ، وليس للحلاج رموز يعرف بها .

وأما قوله : كاد ينسأخ من الدين ، فيا لها كلمة وقاه
الله شرها .

وأما دعواه أنه غير أنيس بعلم الصوفية ، فمن
الكلام البارد ، فانه لا يرتاب ذو نظر بأن الغزالي كان
ذا قدم راسخ في التصوف ، ولت شعري ان لم يكن
الغزالي يدرى التصوف فمن يدره ؟ !

وأما دعواه أنه سقط على أم رأسه ، فوقعة من
العلماء بغير دليل ، فانه لم يذكر لنا بماذا سقط ، كفاه
الله وإيانا غائلة التعصب .

وأما الموضوعات في كتابه ، فليت شعري أهو
واضعها حتى ينكر عليه ؟ !

ان هذا الا تعصب بارد وتشنيع بما لا يرتضيه
ناقد « .

والحقيقة أن الغزالي اذا قورن بالطرطوشي يبزه ويتفوق عليه
في جميع النواحي ، فالغزالي امام مدرسة فكرية كبيرة ، وكان
لآرائه وكتبه وفلسفته آثار جد واضحة على الفكر الاسلامي
والمجتمع الاسلامي قرونا طويلة ، ولا يصح أن نأخذ نقد الطرطوشي
هنا الا على أنه نوع من الغيرة التي تثيرها الخصومة بين العلماء
المتعاصرين المتنافسين .

٦ - والكتاب السادس هو كتاب « سراج الملوك » :

وهو أهم كتبه جميعا وأقيمها ، وهو واحد من كتب الطرطوشي
القليلة التي وصلتنا ، فان معظم كتبه قد فقدت للأسف ، وهو
الكتاب الوحيد من بين هذه القلة الباقية الذي طبع أكثر من مرة ،
والى سنة ١٩٥٩ لم يكن قد طبع من كتب الطرطوشي غير هذا
الكتاب ، وفي هذه السنة (١٩٥٩) طبع له كتاب ثان هو « كتاب
الحوادث والبدع » وسنتكلم عنه بالتفصيل فيما يلي :

وقد ذكرنا من قبل أن الطرطوشى ألف « سراج الملوك » بعيد
إطلاق سراحه من المعتقل الذى حددت فيه إقامته فى الفسطاط ،
وأنه ألفه فى الاسكندرية خلال سنة كاملة ، من شوال سنة ٥١٥ هـ
إلى شوال سنة ٥١٦ هـ ، وأنه قدمه هدية إلى الوزير الذى أطلق
سراحه وهو المأمون البطائى ، وقال فى الإهداء - مشيدا بذكر
هذا الوزير وعدله :

« ولما رأيت الأجل المأمون ، تاج الخلافة ، عز
الإسلام ، فخر الأنام ، نظام الدين ، خالصة أمير
المؤمنين ، أبا عبد الله محمد الأمدى ، أدام الله عزاز
الدين نصره ، وأنفذ فى العالمين بالحق أمره ، وأوزع
كافة الخلق شكره ، وكفاهم فيه محذوره وضره ، فقد
تفضل الله تعالى به على المسلمين ، فبسط فيهم يده ،
ونشر فى مصالح أحوالهم كلمته ، وعرف الخاص والعام
يمينه وبركته ، وتقلد أمور الرعية ، وسار فيهم على
أحسن قضية ، متحريرا للصواب ، راغبا فى الثواب ،
طالبا سبل العدل ومناهج الانصاف والفضل ، رغبت
أن أخصه بهذا الكتاب ، رجاء لطف الله تعالى (يوم
تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت
من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا) ، ولتذكر
فضائله ومحاسنه ما بقى الدهر ، كما قيل :

الناس يهدون على قدرهم

لكننى أهدى على قدرى

يهدون ما يفنى ، وأهذى الذى

يبقى على الأيام والدهر .

ثم يعلل الطرطوشى السبب فى إهدائه الكتاب إلى المأمون ، ويلمح
إلى موقف الأفضل منه ومن العلماء ، ويدعو الوزير الجديد إلى أن

يقف موقفاً آخر من العلماء ، فهم السياج الذى يمنع الحكام من الظلم ، ومن أن يسدروا فى غيهم ، فيقول :

« ان العلم عصمة الملوك والأمراء ، ومعقل السلاطين والوزراء ، لأنه يمنعهم من الظلم ، ويردهم الى الحلم ، ويصدهم عن الأذية ، ويعطفهم على الرعية ، فمن حقهم أن يعرفوا حقه ، ويكرموا حملته ، ويستبطنوا أهله . »

والطرطوشى فى هذا الكتاب من الطلائع ، ومن رواد الفكر الإسلامى الأوائل الذين حاولوا التأليف فى علم السياسة وفن الحكم ، فالعلماء المسلمون الذين ألفوا فى هذا الفن قليلون ، منهم : الغزالى فى كتابه « الذهب المسبوك فى نصيحة الملوك » والطرطوشى فى كتابه « سراج الملوك » ، والشيزرى فى كتابه « المنهج السلوك فى سياسة الملوك » ، وابن طباطبا فى كتابه « الفخرى فى الآداب السلطانية » وغيرهم .

وخيرهم جميعا ابن خلدون فى مقدمته .

وقد أشار ابن خلدون فى مقدمته الى كتاب الطرطوشى « سراج الملوك » ، واعترف أنه من المفكرين القلائل الذين سبقوه بالتأليف فى علم الاجتماع أو العمران ، ولكنه قال ان الطرطوشى أحسن فى تقسيم كتابه وتحديد موضوعاته ، ولكنه لم يحسن علاج هذه الموضوعات أو التفكير فيها أو عرضها ، أو هو - على حد قول ابن خلدون - :

« حوم على الغرض ولم يصادفه ، ولا تحقق قصده ولا استوفى مسأله . »

والطرطوشى قسم كتابه « سراج الملوك » الى أربعة وستين فصلا ، جعل الفصل الأول فى « مواعظ الملوك » ، والفصل الثانى فى « مقامات العلماء والصالحين عند الأمراء والسلاطين » ، ومن بينها فصل لمنافع السلطان ومضاره ، وفصل آخر « لمعرفة الخصال التى هى قواعد الساطان » ، وفصل للوزراء . . وهكذا ، وعقد

فصلا خاصا للحديث عن « علاقة السلطان بالجند وبيت المال » ،
وفصلا للحديث عما يصلح الرعية من الخصال ، وما الى هذا من
موضوعات كثيرة تتصل بسياسة الملك وفن الحكم وتدبير أمور
الرعية .

ومنهج الطرطوشي في تأليف هذا الكتاب ان يبدأ الفصل بتقرير
المبدأ الخلقى الذي يرى ان يتحلى به صاحب الوظيفة سواء أكان
ملكا أم وزيرا أم واليا أم قاضيا ، وقد يشرح هذا المبدأ شرحا يسيرا
ولكنه لا يطيل بل يسرع بايراد كثير من الحكم والأمثال والقصص
التي تؤيد صحة هذا المبدأ ، وهو يقتبس هذه الحكم والقصص
والنوادير من سير الأنبياء والخلفاء والصالحين ، ومن سير الملوك
والحكماء السابقين من مختلف الأجناس والعصور .

فالطرطوشي في كتابه واحد من المفكرين الذين لا يفرقون بين
السياسة والأخلاق ، بل هو يراها شيئا واحدا متفقا ، وهو يشبه
في هذا فلاسفة اليونان القدامى ومفكرهم ، ويختلف اختلافا كبيرا
عن فلاسفة أوروبا في عصر النهضة والعصر الحديث من أمثال :
هوبز ، ولوك ، وروسو ، وهيغل ، وماركس ، الذين كانوا يفرقون
بين السياسة والأخلاق ، ويفكرون في مشاكل السياسة وموضوعاتها
تفكيراً مستقلا عن تفكيرهم الخلقى ، وهو يشبهه في هذا أنداده من
المفكرين الاسلاميين ، فهم جميعا لم يفرقوا في مؤلفاتهم بين
السياسة والأخلاق .

وابن خلدون يعترف للطرطوشي بفضل الاسبقية في ارتياد
هذا الموضوع ، ولكنه أراد في نفس الوقت أن يتعالى عليه ، وأن
يفخر بما آتاه الله من نعمة التوفيق في مقدمته ، قال :

« وكذلك حوم أبو بكر الطرطوشي في كتابه سراج
الملوك ، وبوبه على أبواب تقرب من أبواب كتابنا هذا
ومسائله ، ولكنه لم يصادف فيه الرمية ، ولا أصاب
الشاكلة ، ولا استوفى المسائل ، ولا أوضح الأدلة ؛

وانما يبوب للمسألة ، ثم يستكثر من الأحاديث والآثار ،
وينقل كلمات متفرقة لحكماء الفرس وغيرهم من أكابر
الخليفة ، ولا يكشف عن التحقيق قناعا ، ولا يرفع
بالبراهين الطبيعية حجاجا ، وانما هو نقل وترغيب
شبيه بالمواعظ ، وكأنه حوم على الغرض ولم يصادفه ،
ولا تحقق قصده ، ولا استوفى مسأله ، ونحن ألهما
• الله ذلك الهاما •

وانصافا للطروشى نقول ان هدفه من تأليف سراج الملوك لم
يكن كهدف ابن خلدون من تأليف المقدمة هدفا علميا خالصا ،
وانما كان هدفه فنيا ، يريد أن يؤثر في النفوس بالقصة يرويها ،
أو المثل والحكمة والموعظة الحسنة ، يلمح ولا يصرح .

حقيقة ان الطروشى لم يكن ندا لابن خلدون ، ولكن من العدل
أن يقاس نجاح المؤلف بمقدار نجاحه في تحقيق أهدافه التي كان
يتطلع إليها عند وضع مؤلفه ، والحقيقة أن « سراج الملوك » كتاب
حافل بالقصص الممتعة والأخبار الطريفة والنوادر الشائقة ، كما
ضمنه الطروشى كثيرا من تجاربه المفيدة ونظراته السديدة وآرائه
القيمة ، مما يدل على اطلاع واسع ومعرفة شاملة لمسائل الفقه
والشريعة والتاريخ والأدب .

ومن الفصول القيمة في هذا الكتاب الفصل الذي عقده للدلالة
على فضل الولاة والقضاة اذا عدلوا ، فهو يقول في أوله :

« ليس فوق رتبة السلطان العادل رتبة ، كما أن
خيره يعم ، كذلك ليس دون رتبة السلطان الجائر
الشرير رتبة لشرير ، لأن شره يعم .
وكما أن بالسلطان العادل تصلح البلاد والعباد ،
كذلك بالسلطان الجائر تفسد البلاد والعباد ، وتقترب
الماصي والآثام ، وذلك أن السلطان اذا عدل انتشر
العدل في رعيته ، فأقاموا الوزن بالقسط ، وتعاطوا

الحق فيما بينهم ، واذا جار السلطان انتشر الجور وعم
العباد ، فرقت أديانهم ، واضمحلت مرءاتهم ، ففشت
فيهم المعاصي ، وذهبت أمانتهم ، ضعفت النفوس ،
وقنطت القلوب ، فمنعوا الحقوق ، وتعاطوا الباطل ،
وبخسوا الكيال والميزان .. فرفعت منهم البركة ،
وأمسكت السماء غيثها .. » .

ويروى الطرطوشي حادثة من مشاهداته بالاسكندرية للدلالة
على أن السلطان اذا جار وظلم انتشر الجور وعم البلاد ، فرفعت
البركة ، وقل الرزق ، يقول :

« وشهدت أنا بالاسكندرية والصيد في الخليج
مطلق للرعية ، والسماك فيه يغلى الماء به كثرة ،
ويصيده الأطفال بالخرق ، ثم حجره الوالى ومنع الناس
من صيده ، فذهب السمك حتى لا يكاد يرى فيه
الا الواحدة الى يومنا هذا » .

ويعلق على هذا الخبر مرة أخرى بقوله :

« وهكذا تتعدى سرائر الملوك وعزائمهم ومكنون
ضمايرهم الى الرعية ، أن خيرا فخيرا ، وان شرا فشر » .

ومن كلماته القيمة في وصف خطورة منصب السلطان والمهام
الملقاة على عاتقه :

« .. الخلق في شغل عنه وهو مشغول بهم ،
والرجل يخاف عدوا واحدا ، وهو يخاف ألف عدو ،
والرجل يضيق بتدبير أهل بيته وايلة ضيعته ، وهو
مدفوع لسياسة أهل مملكته ، وكلما رتق فتقا من
حواشى مملكته انفتق آخر ، وكلما لم منها شاعثا رث
آخر .. » .

وهو يبرهن على ضرورة قيام الحكومات بالاشراف على شؤون

الرعية ، والزمام كل فرد حقوقه وحدوده ، والانتصاف للمظلوم من الظالم بقوله :

« جبلت الخلائق على حب الانتصاف وعدم الانصاف ، ومثلهم بلا سلطان ، كمثل الحوت في البحر ، يزدرد الكبير الصغير ، فمتى لم يكن لهم سلطان قاهر لم ينتظم لهم أمر » .

ومن عجب أن الطرطوشى الذى غمز الغزالى غمزته التى أشرنا إليها ، ونقد موسوعته الضخمة « احياء علوم الدين » قد تأثر به وحاكاه عندما أراد أن يؤلف كتابه « سراج الملوك » ، فقد بدا لى أن أقارن بين كتاب الغزالى « الذهب المسبوك فى نصيحة الملوك » وكتاب الطرطوشى « سراج الملوك » فتبين لى أن منهج الرجلين واحد ، فكلاهما يمزج تفكيره الأخلاقى بتفكيره السياسى مزجا تاما ، وكلاهما يبدأ الفصل بتقرير المبدأ الأخلاقى تقريرا موجزا ، ثم يورد من قصص الأقدمين وحكمهم وأمثالهم ما يبرهن به على صحة هذا المبدأ .

والغزالى أهدى كتابه الملك سلجوقى هو السلطان محمد بن ملك شاه ، والطرطوشى أهدى كتابه لوزير فاطمى كان يتمتع بسلطان الملك المطلق ، هو المأمون البطائحى .

وقد يتردد الدارس الناقد طويلا قبل أن يحكم على بعض الفقرات المتشابهة فى الكتابين بأنهما من باب توارد الخواطر .

وسنورد فيما يلى مثالين يؤيدان ما لاحظناه من تشابه بين الكتابين فى بعض الأفكار ، وفى التعبير عنها .

يقول الغزالى عند حديثه عن مكانة العلماء ، وما يجب على الملوك والولاة من تقربهم اليهم واستشارتهم والأخذ بنصيحتهم :

« أيها السلطان : خطر الولاية عظيم ، وخطبها جسيم ، ولا يسلم الوالى الا بمقاربة علماء الدين

ليعلموه طرق العدل ، ويسهلوا عليه خطر هذا الأمر » .

ويقول الطرطوشي في هذا المعنى :

« ان العلم عصمة الملوك والأمراء ، ومعقل السلاطين والوزراء ، لأنه يمنعهم من الظلم ، ويردهم الى الحلم ، ويصدهم عن الأذية ، ويعطفهم على الرعية ، فمن حقهم أن يعرفوا حقه ، ويكرموا حملته ، ويستبطنوا أهله » .

ويقول الغزالي عند حديثه عن أثر السلطان العادل أو السلطان الجائر في الرعية وعمران البلدان :

« ينبغي أن تعلم أن عمارة الدنيا وخرابها من الملوك ، فاذا كان السلطان عادلا عمرت الدنيا وأمنت الرعايا . . ، واذا كان السلطان جائرا خربت الدنيا » .

ويقول الطرطوشي في نفس المعنى :

« ليس فوق رتبة السلطان العادل رتبة كما أن خيره يعم ، وكما ان بالسلطان العادل تصلح البلاد والعباد ، كذلك بالسلطان الجائر تفسد البلاد والعباد » .

ولكن من الانصاف أن نذكر أن كتاب « الذهب المسبوك » للغزالي موجز ، فقد قسمه الى سبعة ابواب ، تناول فيها أمهات المسائل ، أما كتاب « سراج الملوك » للطرطوشي فكتاب ضخم مفصل قسمه الى أربعة وستين بابا ، وقد تناول فيه كثيرا من الموضوعات التي لم يعرض لها الغزالي في كتابه ، وحصيلة الطرطوشي في سراج الملوك من القصص والنوادر والحكم والأخبار التاريخية والمسائل الفقهية أغنى وأوفر من حصيلة الغزالي في كتابه « الذهب المسبوك » .

٧ - والكتاب السابع هو « كتاب الحوادث والبداية » :

أو كتاب « بدع الأمور ومحدثاتها » - كما تسميه بعض المراجع ، ذكره : ابن خلكان في « الوفيات » ، وابن فرحون في « الديباج المذهب » ، والحميري في « صفة جزيرة الأندلس » ، والمقرئ في « نفح الطيب » ، وحاجي خليفة في « كشف الظنون » ، وبروكلمان في « تاريخ الآداب العربية » .

وأشار الأخير إلى أنه توجد من هذا الكتاب نسخة خطية وحيدة في المكتبة القومية بمدريد تحت رقم ٥٤٣١ .

وهذا هو ثاني كتاب طبع من مؤلفات الطرطوشي ، نشره أخيراً في سنة ١٩٥٩ الأستاذ محمد الطالبى من علماء تونس نشرة علمية محققة ضمن « مطبوعات كتابة الدولة للتربية القومية » بالجمهورية التونسية .

وذكر الأستاذ الناشر في مقدمته أنه توجد نسخة خطية ثانية من الكتاب في المكتبة الأحمدية بجامعة الزيتونة ضمن مجموع خطى رقم ٣٣٨٧ ؛ وقد كتبت هذه النسخة في سنة ١٠٥٨ ونقلها كاتبها عن نسخة أخرى عتيقة مؤرخة بسنة ٨٤٩ هـ ، وتقع هذه النسخة في ست وخمسين صفحة ، وتشتمل كل صفحة على نحو الثلاثين سطراً .

أما نسخة مدريد فتوجد هي كذلك ضمن مجموع يضم مؤلفات أخرى من بينها مؤلفان آخران للطرطوشي ، هما : كتاب « بر الوالدين » ، ورسالة « تحريم الغناء واللغو على الصوفية » ، وسنعرض لذكرهما فيما يلي :

ومخطوطة مدريد (١) من كتاب « الحوادث والبدع » تقع في ٦١ صفحة ، في كل صفحة ٢٨ سطرا .

وقد اعتمد الأستاذ الطالبى على هاتين المخطوطتين عند طبع الكتاب ، وقدم له بمقدمة في ١٣ صفحة ترجم فيها للطروشى ترجمة مختصرة ، ووصف المخطوطتين ، وحلل الكتاب وبين أهميته .

والكتب التى ألفت فى موضوع البدع قليلة ، أقدمها كتاب « الرد على أهل البدع » لمحمد بن سحنون (٢٠٢ - ٢٥٦ هـ) ، لم يصلنا ، وإنما ذكره القاضى عياض فى « المدارك » (٢) .

ولعاصره أبى عبد الله محمد بن وضاح القرطبى (١٩٧ - ٢٨٦) كتاب « البدع والنهى عنها » (٣) ، تشره محمد أحمد دهمان ، وطبع فى دمشق سنة ١٣٤٩ هـ (١٩٢٨) .

ولأبى زكريا يحيى بن عون المتوفى سنة ٢٩٨ هـ هو كتاب فى الرد على أهل البدع ، ذكره القاضى عياض « فى المدارك » كذلك ، ولا وجود له .

(١) انظر المقال الذى كتب عن هذه المخطوطة فى المجلة الملكية للاكاديمية

التاريخية باسبانيا :

(Il Boletin de la Real Academia de la Historia. T. LXII. cuad. IV. Abril 1913. P. 238).

• وانظر كذلك مقدمة الترجمة الأسبانية لكتاب « سراج الملوك » .

(Alarcon. m. : Lampora de los principes por Abubequer de Tortosa - trad. Espan - , madrid. 1930 - 1931) .

(٢) انظر مقدمة الطالبى لكتاب « الحوادث والبدع » ، ص ٧ : وانظر ترجمة محمد بن سحنون فى : (المالكى : رياض النفوس ، نشر الدكتور حسين مؤنس ، ج ١ ، ص ٢٤٥ - ٣٦٠) .

(٣) مقدمة الطالبى ، ص ٦ ، انظر ترجمة ابن وضاح فى (ابن الفرضى :

تاريخ العلماء ، القاهرة ١٩٥٤) .

وبذلك يكون أول كتاب وصلنا في موضوع البدع هو كتاب ابن وضاح القرطبي ، والكتاب الثاني هو كتاب الطرطوشي « الحوادث والبدع » .

وقد عرض لموضوع البدع بعد الطرطوشي مؤلفون آخرون ، نذكر من بينهم المؤرخ الدمشقي - صاحب كتاب الروضتين وذيله - شهاب الدين أبا محمد عبد الرحمن بن اسماعيل المعروف بأبي شامة ، والمتوفى سنة ٦٦٥ هـ ، وله كتاب « الباعث على انكار البدع والحوادث » ، نشره محمد فؤاد منقادة الطرابلسي ، وطبع في القاهرة سنة ١٩٥٥ ، واعتمد فيه كثيرا على كتاب « الحوادث والبدع » للطرطوشي .

ومنهم أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري القيرواني التلمساني ، المشهور بابن الحاج الفاسي ، والمتوفى بالقاهرة سنة ٧٣٧ هـ ، وقد عالج موضوع البدع في كتابه الكبير « المدخل » ، وأشار فيه الى كتاب الطرطوشي وأفاد منه .

ومنهم أبو اسحاق ابراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي ثم الغرناطي (١) ، المتوفى سنة ٧٩٠ هـ ، وله كتاب « الاعتصام » في البدع ، نشره وقدم له الشيخ محمد رشيد رضا في ثلاثة أجزاء ، وطبع في مطبعة المنار بالقاهرة سنة ١٣٣١ هـ (١٩١٣) .

هذه هي الكتب التي استطعت أن أعتز عليها في موضوع البدع ، وهي كلها - فيما عدا كتاب الباعث لأبي شامة - لمؤلفين مغاربة أو أندلسيين وطنا ، مالكيين مذهباً ، وليس هذا من باب الاتفاق المحض ، بل ان السبب يكمن في انتسابهم لهذا الوطن ولهذا المذهب ، فالمغاربة منذ عرفوا مذهب مالك وهم شديدو التعلق به ، فقد وجدوا فيه العاصم من مساوئ الخلافات المذهبية التي أشاعت الفرقة في المشرق الاسلامي ، ومذهب مالك يلتزم القرآن

(١) انظر ترجمته في : (أحمد بابا التنيكي : نيل الابتهاج بتطريز الديقاج)

و (سركيس : معجم الطبوعات العربية) .

والسنة التزاما تاما ، ويأبى ما عداهما ، ولذلك اعتبر كل انحراف عن أحكام القرآن والسنة بدعة ، ولهذا حرص الفقهاء والعلماء المغاربة والأندلسيون على تتبع هذه البدع وحصرها وتفنيدها والرد عليها .

وقد آمن الطرطوشى ، ومن نهج نهجه ممن ألفوا فى البدع أن العصر الذهبى هو عصر النبى عليه السلام وصحابته الأكرمين ، وأن كل اصلاح يجب أن يكون بالرجوع الى مثل هذا العصر الأول ، وأن كل انحراف عن هذه المثل يعتبر بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار .

وقد عرف الطرطوشى البدعة - فى كتابه هذا - بقوله :

« أصل هذه الكلمة من الاختراع ، وهو الشيء يحدث من غير أصل سبق ، ولا مثال احتذى ، ولا ألف مثله ، ومنه قولهم : ابتدع الله الخلق ، أى خلقهم ابتداء ، ومنه قوله تعالى :

« بديع السموات والأرض » .
وقوله :

« قل ما كنت بدعا من الرسل » ، أى لم أكن أول رسول الى أهل الأرض .

وهذا الاسم يدخل فيما تخترعه القلوب ، وفيما تنطق به الألسنة ، وفيما تفعله الجوارح . الخ » .

والطرطوشى يشرح فى مقدمة « الحوادث والبدع » موضوع الكتاب ، والهدف من تأليفه ، ويقسم البدع نوعين : نوع اتفق المسلمون جميعا على أنه بدعة مستحدثة ، ونوع اشتبه أمره على الناس ، فظنوه عبادات وقربات ، وحسبوه طاعات وسننا ، وهو ليس كذلك ، وهذا النوع الثانى هو الذى أراد الطرطوشى أن يجلو أمره للمسلمين لتزول الشبهات ، قال :

« هذا كتاب أردنا أن نذكر فيه جملاً من بدع
الأمور ومحدثاتها التي ليس لها أصل في كتاب الله
وسنته ، ولا أجماع ولا غيره ، فألفت ذلك ينقسم
قسمين :

قسم يعرفه الخاصة والعامة أنه بدعة محدثة ،
أما محرمة وأما مكروهة ، وقسم يظنه معظمهم - إلا من
عصم الله - عبادات وقربات وطاعات وسننا .

أما القسم الأول فلم نتعرض لذكره ، إذ كفيينا
مؤونة الكلام فيه لاعتراف فاعله أنه ليس من الدين .
وأما الثاني فهو الذي قصدنا جمعه وإيقاف
المسلمين على فسادِه ووبال عاقبته » .

وقد قسم الطروشى بحثه الى أربعة أبواب :

- الباب الأول : فيما انطوى عليه الكتاب العزيز من الأمور
التي ظاهرها سلم جرت الى هلك .

- والباب الثاني : فيما اشتملت عليه السنة من النهى عن
محدثات الأمور .

- والباب الثالث : في أساليب الصحابة في كيفية ضبطهم
للقانون الذي تحفظ به قواعد الدين وتموت البدع .

- والباب الرابع : في نقد ما حدث من ذلك في الاسلام ،
وتنصيب العلماء على تحريمها وكرهتها .

وقد فرع المؤلف هذه الأبواب بعد ذلك الى فصول وفروع ،
ومعظم الحوادث التي تخضع لنقد المؤلف مما يتصل بالعبادات ،
وبعضها مما يتصل بسلوك المسلمين في مجتمعهم ، وأن كان من
العسير في الواقع أن نفرق بين هذه وتلك ، فالمجتمع في عصر
الطروشى مجتمع إسلامى ، يخضع في كل صغيرة وكبيرة لاحكام
الشريعة الإسلامية ، والدين الإسلامى دين عبادات ومعاملات .

ومن الموضوعات التي تناولها الطرطوشي في كتابه موضوع « صلاة التراويح وأحكامها » وهل الأفضل أن تصلى في البيوت أو في المساجد والجماعات ، وإذا صلاها المصلى في بيته فهل الأفضل أن يصليها منفردا أو يصليها بأهل بيته وإخوانه ان حضروا . .

وفي الباب الرابع يفصل الطرطوشي الحديث عن قراءة القرآن وكتابته ، وعن آداب المسجد وقراءة القصص فيه ، وعن الاحتفال بليلة النصف من شهر شعبان وصيام شهر رجب ؛ ثم ختمه بإيراد مجموعة من البدع المستحدثة في التعزية والمآتم والجنائز وغيرها .
والمؤلف يستنكر قراءة القرآن بالألحان ، ويحتذى في هذا حدو الامام مالك الذي يقول :

« ولا تعجبني القراءة بالألحان ، ولا أحبها في رمضان ولا في غيره ، لأنه يشبه الغناء ويضحك بالقرآن ، ويقال : فلان أقرأ من فلان ، وبلغني أن الجوارى يعلمن ذلك كما يعلمن الغناء ، أترى هذا من القراءة التي كان يقرأ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ! » (١) .

وقد أورد الطرطوشي في هذا الفصل معلومات تفصيلية طريفة وقيمة عن بدء القراءة بالألحان والمشتغلين بها ، والمصطلحات التي وضعوها لهذا الفن ، وعن الألحان وأنواعها ومسمياتها . . الخ قال :

« فأما أصحاب الألحان فانما حدثوا في القرن الرابع (٢) ، منهم : محمد بن سعيد صاحب الألحان ، والكرماني ، والهيثم ، وأبان . . فكانوا مهجورين عند العلماء ، فنقلوا القراءة الى أوضاع لحون الأغاني ، فمدوا المقصور ، وقصروا الممدود ، وحرکوا الساكن ،

(١) الحوادث والبدع ، ص ٧٥ .

(٢) كذا في الأصل ، والصواب : القرن الثالث .

وسكنوا المتحرك ، وزادوا في الحرف ونقصوا فيه ،
وجزموا المتحرك ، وحركوا المجزوم ، لاستيفاء نغمات
الأغاني المطربة .

ثم اشتقوا لها أسماء ، فقالوا :

- شدر
- ونبر
- وتفريق
- وتعليق
- وهز
- وخز
- وزمر
- وزجر
- وحذف
- وتشريق
- واسجاح
- وصياح

ثم يقولون : مخرج هذا الحرف من الأنف ، وهذا من الرأس ،
وهذا من الصدر ، وهذا من الشدق :

- فما خرج من القحف فهو صياح .
- وما خرج من الجبهة فهو زجر .
- وما خرج من اللهوات فهو نبر .
- وما خرج من الأنف فهو زمر .
- وما خرج من الحلق فهو خريز وشدر .
- وما خرج من الصدر فهو هرير .
- وسموها لحنًا .

ثم جعلوا لكل لحن منها اسما مخترعا ، فقالوا :

– « اللحن الصقلبي » : فاذا قرأوا قوله تعالى : « واذا قيل ان وعد الله حق » ، يرقصون في هذه الآية كرقص الصقالبة بأرجلها وفيها الخلاخيل ، ويصفقون بأيديهم على ايقاع الأرجل ، ويرجعون الأصوات بما يشبه تصفيق الأيدي ورقص الأرجل ، كل ذلك على نغمات متوازنة .

ومن ذلك : « الرهب » : أن نظروا الى كل موضع في القرآن فيه ذكر المسيح ، كقوله تعالى : « انما المسيح عيسى بن مريم » ، وكقوله تعالى : « واذا قال الله يا عيسى بن مريم » ، فمثلوا أصواتهم فيه بأصوات النصرى والرهبان والأساقفة في الكنائس .

ومن ألحانهم في القرآن :

- النبطي .
- والرومي .
- والحساني .
- والمكسي .
- والاسكندراني .
- والمصري .
- والكاروندي .
- والراعي .
- والديباجي .
- والياقوتي .
- والعروسي .
- والزرجون .
- والمرجي .
- والمجوسي .
- والزنجي .
- والمنمنم .
- والسندي .

وغيرها ، كرهنا ذكر التطويل بها .

فهذه أسماء ابتدعوها في كتاب الله تعالى ، « ما أنزل الله بها من سلطان » ؛ فالتالى منهم والسماع لا يقصدون فهم معانيه من أمر أو نهى ، أو وعد ، أو وعيد ، أو وعظ ، أو تخويف ، أو ضرب مثل ، أو اقتضاء حكم ، أو غير ذلك مما أنزل به القرآن ؛ وإنما هو للذة والطرب والنفمات والألحان ، كنقر الأوتار ، وأصوات المزامير ، كما قال الله - عز وجل - يذم قريشا : « وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصديةة » ، وإنما أنزل القرآن لتدبر آياته وتفهم معانيه .

قال الله تعالى : « كتاب أنزلناه اليك مبارك ليذبروا آياته » .

وقال تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن » .

وقال : « إنما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، واذا

تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا » .

وهذا يمنع أن يقرأ بالألحان المطربة والمشبهة للأغانى ، لأن ذلك يثمر ضد الخشوع ، ونقيض الخوف والوجل ، وقوله تعالى منهم : « واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق » ، وهذا يفيد الأمر بتلاوته على هذا الوجه ، وأن بكاءهم إنما كان مما فهموا من معانيه ، لا من نفمات القارئ ، فأين هذا من دق الرجل ، وثنى العطف ، وتحريك الرأس ، والصياح والزعق ، والمكاء ، والتصديةة ؟ !

قال الله تعالى :

« لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيت حاشعا متصدعا من خشية الله » ، فليت شعرى ما الذى يورث خشية الله تعالى ؟ الحان الكرمان ونفمات الترمذى ؟ ! أو فهم معانيه وتدبر آياته واستخلاص حكمه وعجائب مضمونه ؟ .. » .

وعلى هذا النمط يسير الطرطوشى فى كتابه ، فىنص على البدع والمحدثات واحدة بعد واحدة ، ثم يبين وجه مخالفتها للشريعة ومثل الحياة فى صدر الاسلام ، مستشهدا على بطلانها بالقرآن والأحاديث النبوية تارة ، وبأداء الصحابة وعلماء الاسلام - وخاصة الامام مالك وتلاميذه - تارة أخرى .

والذى تأخذه على الطرطوشى أنه وأنداده من فقهاء عصره لم يرتفعوا بمقاييسهم الى دعائم الاسلام ومثله الروحية العليا ، وإنما نزلوا بها - فى كثير من الأحيان - الى أمور كثيرة مما يمس سلوك الانسان فى حياته العادية ؛ فعد الطرطوشى من البدع :

« اتخاذ الألوان ، والأكل على الخوان ، واستعمال الطيب فى آنية من الفضة » .

وعد منها :

« الانذار (أى الاعلان) للعرس وللجنازة للمباهاة والتفاخر لكثرة الناس ، وكذلك الانشاد ورفع الصوت عند حمل الجنازة » .

وعد منها :

« دخول الحمام للنساء مع الكتابيات بغير مئزر ، والمسلمين مع الكفار فى الحمام » .

وعد منها :

« شرب الماء غير مص ، وأكل اللحم غير نهش »
بل أنه اعتبر « امتعاط العمائم » بدعة « والامتعاط هو التعمم دون الحنك » .

وعنده : أن « اسبال الثوب تحت الكعبين حرام لا يجوز » .

فالكتاب لهذا لا يعتبر مرجعا فقهيا وحسب ، بل هو كذلك مرجع طيب لدراسة المجتمع الاسلامى فى أوائل القرن السادس

الهجرى (١٢ م) ، فقد ألف الطرطوشى كتابه هذا أثناء مقامه في مدينة الاسكندرية ، وبعد سنة ٥٠٠ هـ بقليل ، أو بعد سنة ٤٨٠ هـ على وجه التحديد ، فقد نقل عن أحد علماء بيت المقدس أن صلاة الرغائب التى تصلى في النصف من شعبان - وهى عنده احدى البدع - استحدثت في القدس لأول مرة في سنة ٤٤٨ هـ ، قال :

« وأخبرنى أبو محمد المقدسى قال : لم يكن عندنا بيت المقدس قط صلاة الرغائب هذه التى تصلى في رجب وشعبان ، وأول ما حدثت عندنا في أول سنة ثمان وأربعين وأربعمائة ، قدم علينا في بيت المقدس رجل من نابلس يعرف بابن أبى الحمراء ، وكان حسن التلاوة ، فقام فصلى في المسجد الأقصى ليلة النصف من شعبان ، فأحرم خلفه رجل ، ثم انضاف اليهما ثالث ، ورابع ، فما ختمها الا وهم في جماعة كثيرة ، ثم جاء في العام القابل ، فصلى معه خلق كثير ، وشاعت في المسجد ، وانتشرت الصلاة في المسجد الأقصى وبيوت الناس ومنازلهم ، ثم استقرت كأنها سنة الى يومنا هذا ؛ فقلت له :

— فأنا رأيتك تصليها في جماعة ؟ !

قال : نعم ، واستغفر الله منها .

ثم يستطرد هذا العالم فيذكر ان صلاة الرغائب في رجب استحدثت لأول مرة بعد سنة ٤٨٠ هـ :

« قال : وأما صلاة رجب فلم تحدث عندنا في

بيت المقدس الا بعد سنة ٤٨٠ ثمانين وأربعمائة ،

وما كنا رأيناها ولا سمعنا بها قبل ذلك » .

والطرطوشى في نقده ينظر نظرة واسعة الى العالم الاسلامى

— مشرقه ومغربه - ، فيأتى بالشواهد مرة من وطنه الأصلي

الأندلس ، ومرة ثانية من المغرب ، ومرة ثالثة من بيت المقدس ،

ومرة رابعة من الاسكندرية وطنه الثانى وهكذا ، وميزة هذه الشواهد أنها تعطى صورة من المجتمع فى مختلف أنحاء العالم الاسلامى على عصر الطرطوشى ، أى فى النصف الثانى من القرن الخامس والنصف الأول من القرن السادس الهجريين (١١-١٢م) .
فهو يعيب على أهل الاسكندرية طريقتهم فى قراءة القرآن بالادارة ، فيقول :

« وأما أن يجتمع القوم فيقرأون فى السورة مثل ما يعمل أهل الاسكندرية ، وهو الذى يسمى القراءة بالادارة ، فكرهه مالك ، وقال : هذا لم يكن من عمل الناس » (١) .

وهو يستنكر اجتماع النساء بالرجال فى المساجد لحضور ختم القرآن ، أو للاستماع الى وعظ الواعظين ، ويشير الى ما كان يحدث فى أيامه من منكر نتيجة لهذا الاختلاط ، فيقول :

« ومن البدع اجتماع الناس بأرض الأندلس على ابتياع الحلوى ليلة سبع وعشرين من رمضان ، وكذلك على إقامة ينير (يقصد شهر يناير) بابتياع الفواكه كالعجم ، وإقامة العنصرة وخميس ابريل ، بشراء المجينات والاسفنج ، وهى من الأطعمة المبتدعة .

وخروج الرجال جميعا أو اشتاتا مع النساء مختلطين للتفرج ، وكذلك يفعلون فى أيام العيد ، ويخرجون للمصلى ، ويقمن فيه الخيم للتفرج لا للصلاة » (٢) .

وجماع القول ان كتاب الحوادث والبدع كتاب قيم يفيد

(١) الحوادث والبدع ، ص ٧٨ ؛ وانظر كذلك ص ١٤٩ و ١٥٠ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٤٠ - ١٤١ .

المشتغلين بالدراسات الفقهية كما يفيد المؤرخين ورجال الآثار وعلماء الاجتماع ، فان ما فيه من استطرادات وشواهد تقدم للباحث والقارئ صوراً شائقة حية لكثير من أحوال المجتمع الإسلامي في عصر المؤلف .

وبعد نحو قرن ونصف قرن ألف المؤرخ الدمشقي أبو شامة كتابه في البدع ، وأسماه « الباعث على انكار البدع والحوادث » ، وواضح من العنوان أنه مقتبس من عنوان كتاب الطروشى ، فالأول في « الحوادث والبدع » ، والثاني في « البدع والحوادث » .

وكان الباعث لأبى شامة على تأليف كتابه موضوعاً من الموضوعات التي عالجها الطروشى في كتابه وأفاض الحديث عنها ، وهو : « صلاة الرغائب » في منتصف شهر شعبان وشهر رجب ، قال أبو شامة في مقدمة كتابه :

« قلت : ثم كان من العجائب والغرائب أن وقع في زماننا نزاع في بدعة صلاة الرغائب ، واحتيج بذلك الى التصنيف المشتمل على ذم المخالف والتعنيف ، فحملتني الأنفة للعلم ، والحمية للصدق ، على تمييز الباطل من الحق ، فألفت هذا الجزء الموصوف « بالانصاف فيما وقع في صلاة الرغائب من الاختلاف » ، وأضفت الى ذلك بيان البدع في غيره مما يناسبه ، وضمنت اليه ما يقاربه ، رغبة في تحليل المحن من مخالفة السنن ، وقمعا للطائفة المتدعة .. الخ » (١) .

ونص أبو شامة على أنه اتخذ من كتاب الطروشى أصلاً لبحثه ، واعتمد عليه اعتماداً كبيراً ونقل عنه كثيراً ، ونص كذلك على أنه قرأه ورواه عن شيخه أبى الحسن على بن محمد الهمداني

(١) أبو شامة : الباعث على انكار البدع والحوادث ، ص ٦ .

عن تلميذ الطرطوشي وخليفته العالم السكندري أبي الطاهر اسماعيل
ابن مكي بن عوف ، قال :

« وقد صنف الامام الشيخ الزاهد أبو بكر محمد
ابن الوليد الفهرى الطرطوشي - رحمه الله - كتابا
ذكر فيه جملا من بدع الأمور ومحدثاتها التى ليس لها
أصل فى كتاب ولا سنة ولا اجماع ولا غيره ، وهو كتاب
حسن مشحون بالفوائد على صفه ، أخبرنا به شيخنا
العلامة أبو الحسن على بن محمد الهمداني قراءة منى
عليه ، قال : أنبأنا به الامام أبو الطاهر اسماعيل بن مكي
ابن عوف مفتى الاسكندرية عنه ، وسنقل منه الى هذا
الكتاب جملة من فوائده فى مواضعها . . » (١) .

٨ و ٩ - والكتابان الثامن والتاسع هما :

• كتاب بر الوالدين

• كتاب - أو رسالة - فى تحريم الغناء واللغو على الصوفية
فى رقصهم وسماعهم •

وتجمع بين هذين الكتابين والكتاب السابق « الحوادث والبدع »
مخطوطة مدريد رقم ٥٣٤١ (٢) ، فرسالة تحريم الغناء واللغو على
الصوفية تشتمل على الصفحات من ١٠٤ الى ١٢١ ، وكتاب

(١) أبو شامة : الباعث ، ص ١٢ .

(٢) انظر المقال الذى تضمن دراسة هذه المخطوطة فى :

El Boletin de la Real Academia de la Historia. T. LXII, cuad

IV. Abril 1913 P. 238.

وانظر كذلك مقدمة الترجمة الاسبانية لكتاب سراج الملوك للطرطوشي :

Alarcon (m) : Lampara de los principes par Abubequer de

Tortosa (trad. Espan.), Madrid, 1930 - 1931 .

بر الوالدين يشتمل على الصفحات من ١٢١ ب الى آخر الكتاب ،
ولا توجد من الكتابين غير هذه النسخة ، وتنتهى بهذا التأريخ :

« انتهى النسخ في أوائل محرم سنة ١٠١١ ، كتبها

عبيد الله محمد بن محمد بن أبى القاسم بن عمر » .

ولم يتيسر لنا حتى الآن الاطلاع على هذه المخطوطة ودراسة
هذين الكتابين ، ولكن الذى تذكره المراجع أن الكتاب الأول
« بر الوالدين » قد عالج فيه الطروشى موضوع عقوق الأبناء ،
وأورد فيه من الآيات والأحاديث والحكم والأشعار ما يحث الأبناء
على البر بالوالدين ، وأغلب الظن أن التجربة التى مر بها الطروشى
مع ابن زوجته الذى كان يزعم قتله - والتى أشرنا إليها فيما سبق
هنا - كانت سببا من الأسباب التى دفعته الى تأليف هذا الكتاب .

وأغلب الظن كذلك أن الطروشى قد أحس - بعد أن تزوج
فى الاسكندرية ، وبعد أن أنجب - عاطفة الأبوة تطفى عليه وتملك
عليه نفسه ، فالف هذا الكتاب ، وخاصة أن الرجل تزوج بعد أن
تقدمت به السن ، أى بعد سن الأربعين - وهى السن التى بلغها
عند وصوله الاسكندرية ، والرجل اذا أنجب فى سن متأخرة تكون
عاطفة الأبوة عنده عادة قوية عارمة ، ومما يرجح استنتاجنا أن
ياقوت أورد فى ترجمته للطروشى بعض الشعر الذى قاله فى هذا
المعنى ، قال :

لو كان يدرى الابن اية غصنة

يتجرع الأبوان عند فراقه ؟ !

أم تهيج بوجده حيرانة ،

وأب يسبح الدمع من أمـاقه .

يتجرعان لبينه غصص الردى ،

ويبوح ما كتماه من أشواقه .

لرئى لأم سـل من أحشائها ،
وبكى لشيخ هام فى آفاقه

ولبدل الخلق الأبى بعطفه ،
وجزاهما بالعذب من أخلاقه

• وأغلب الظن — مرة ثالثة — أن هذا الشعر لم يكن الا تعبيرا
عن عاطفته وشعوره هو ، فالشيخ الذى عناه بقوله : « وبكى لشيخ
هام فى آفاقه » لم يكن الا الطرطوشى نفسه .

١٠ - والكتاب العاشر هو « رسالة فى تحريم جبن الروم » :

وهذا الكتاب ألفه قطعا أثناء مقامه فى الاسكندرية ، وكان من
الأسباب التى أثارت عليه القاضى ابن حديد والوزير الأفضل
شاهنشاه — كما بينا سالفاً — ، وهو من كتبه المفقودة .

١١ - والكتاب الحادى عشر هو « كتاب الفتن » ، ولعله تناول
فيه الفتن التى سادت العالم الاسلامى فى ذلك الوقت ، شرقه
وغربه — فقد كان العالم الاسلامى يجتاز حينذاك مرحلة تسودها
الانقسامات والفتن فى كل جزء من أجزائه ، وهو من كتبه المفقودة
كذلك .

١٢ - والكتاب الثانى عشر هو « كتاب تحريم الاستمناء » .

وتوجد منه نسخة خطية فى مكتبة برلين تحت رقم ٤٩٨١ .

١٣ - والكتاب الثالث عشر هو « كتاب نزهة الاخوان المتحابين

فى الله » :

وتوجد منه نسخة خطية فى مكتبة جوتا تحت رقم ٩٠٩ .

١٤ و ١٥ - وهذان الكتابان هما :

• « رسالة العدة عند الكرب والشدة » .

و « حاشية على اثبات الواجب » .

وقد ذكرنا في (فهرس مكتبة استانبول ، الجزء الأول)
منسوبين الى الطروشى .

١٦ - « كتاب الدعاء » .

١٧ - « كتاب النهاية في فروع المالكية » .

١٨ - « كتاب نفائس الفنون » .

وهذه الكتب الثلاثة انفرد بذكرها حاجى خليفة في « كشف
الظنون » منسوبة الى الطروشى .

١٩ - « اختصار كتاب أخلاق رسول الله » ، والأصل لأبى محمد
عبد الله بن جعفر بن حيان .

ذكره ابن خير في فهرسه ، قال :

« كتاب أخلاق رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
لابن حيان ، اختصار الشيخ الامام أبى بكر محمد بن
الوليد الفهرى الطروشى - رحمه الله .
حدثنى به القاضى أبو بكر العربى - رحمه الله -
قال :

أخبرنى به شيخنا الامام أبو بكر الطروشى - رحمه
الله - به وبالأصل عن أبى بكر المفيد الحافظ المعروف
بابن الخاصة ، ولم يزد ابن العربى - رحمه الله -
على هذا فى سند الأصل .

وحدثنى بالأصل المذكور الشيخ أبو الحسين
عبد الملك بن محمد الصدفى ، قال : قرأت جميعه على
الشيخ الامام أبى القاسم عبد الله بن طاهر التميمى ،
حدثنا به عن أبى بكر أحمد بن الحارث المقرئ ، عن
أبى محمد عبد الله بن جعفر بن حيان - رحمه الله -
سنة أجزاء » .

٢٠ - « جزء فيه منتخب من عيون خصائص العباد » .

ذكره ابن خير في فهرسه .

٢١ - « ثلاثة أجزاء فيها الكلام في الفنى والفقر » .

ذكره ابن خير في فهرسه ، قال :

« ثلاثة أجزاء فيها الكلام في الفنى والفقر ، تولى

جمعها الفقيه أبو بكر الطرطوشى - رحمه الله - حدثنى

بها القاضى أبو بكر بن العربى - رحمه الله - » .

٢٢ - « رسالة أبى بكر الطرطوشى الى ابن تاشفين » .

ذكرها ابن خير في فهرسه ، قال :

« رسالة الفقيه أبى بكر محمد الطرطوشى - رحمه

الله - الى ابن تاشفين ، حدثنى بها القاضى أبو بكر

محمد بن العربى - رحمه الله - قراءة عليه وأنا أسمع

غير مرة ، قال : أخبرنى بها أبو بكر الطرطوشى - رحمه

الله - » .

وهى رسالة طويلة فى نحو عشر صفحات كتبها الطرطوشى الى

أبى يعقوب بن تاشفين يوصيه بتقوى الله وطاعته ، وإشاعة العدل

بين رعاياه ، وحشد فيها الشواهد الكثيرة من الآيات القرآنية

والأحاديث النبوية والأحداث التاريخية التى تتضمن الأمر بالمعروف

والنهى عن المنكر .

والرسالة - لحسن الحظ - موجودة كلها فى الجزء

الذى لم ينشر من مخطوطة « مفاخر البربر » (١) ، وهى مؤلف

مجهول ، وقد أوصى الطرطوشى فى ختام رسالته السلطان المرابطى

(١) أشكر الصديق الدكتور أحمد مختار العبادى ، فقد تفضل وأطلعنى على

صور شمسية من هذه المخطوطة ، وعنها نقلت نص هذه الرسالة التى سأنشرها

ملحقة بكتابى هذا .

أبا يعقوب يوسف بن تاشفين بصديقه وتلميذه أبي بكر محمد
ابن العربي خيرا ، قال :

« والفقير أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي ممن
صحبنا أعواما يدارس العلم ويمارسه ، بلوناه وخبرناه ،
وهو من جمع العلم ووعاه ، ثم تحقق به ورعاه ، وناظر
فيه وجد حتى فاق أقرانه ونظراه ، ثم رحل الى العراق
فناظر العلماء ، وصحب الفقهاء ، وجمع من مذاهب
العلم عيونها ، وكتب من حديث رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - وروى صحيحه وثابته ؛ والله تعالى يؤتى
الحكمة من يشاء ، وهو (أى ابن العربي) وأرد عليك
بما يسرك ، فاشدد عليه يدك ، واحفظ فيه وفي
أمثاله وصية الله سبحانه لنبيه عليه السلام ، قال الله
- سبحانه - وهو أجل القائلين :

« وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام
عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة » .

والحمد لله رب العالمين ، والسلام عليك ورحمة الله
وبركاته ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم
النبيين ، واله الطيبين الطاهرين ، وسلم ، وشرف
وكرم ، وأفضل وأنعم « (١) .

والشبه كبير بين النصائح التى أزجها الطرطوشى للوزير
الفاطمى الأفضل شاهنشاه والتى ضمنها كتابه « سراج الملوك » ،
والنصائح التى أزجها للسلطان المرابطى أبى يعقوب يوسف

(١) وقد عقب مؤلف (مفاخر البربر) على هذه الرسالة بقوله : « هكذا
كانت سيرة العلماء مع الأمراء ، ومنذ عدم الناس أمثال هؤلاء العلماء أصابهم
ما أصابهم » .

ابن تاشفين في رسالته اليه ، والطرطوشي في نصائحه هذه وتلك هو هو لم يتغير ، يمثل عالم الدين الجريء الذي يرى من واجبه أن يتقدم لولى الأمر - مهما علت مكانته أو قوى سلطانه - بالنصح ، أن يلتزم حدود الدين في أوامره ونواهيه ، وأن يرمى الله في رعيته ، وأن يفتح بابه لكل صاحب مظلمة ، وهذا طراز من العلماء نادر الوجود .

ملحق

نص رسالة أبي بكر الطرطوشي

الى السلطان المرابطى ابي يعقوب يوسف بن تاشفين
(والرسالة تنشر لأول مرة عن الجزء المخطوط الذى لم يطبع بعد
من كتاب مفاخر البربر) .

وكتب (الطرطوشى) لى كتابا نسخته من أوله الى آخره : -

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن الوليد الطرطوشى الى الأمير أبى يعقوب
ابن تاشفين ، سلام عليك ، أما بعد ، فانى أحمد الله اليك الذى
لا اله الا هو ، وأشكره لديك كثيرا كما هو أهله ، وأخصك من
مواعظه وحكمه ما ان أخذت به نجوت من عظيم ما ركبت ان شاء الله
تعالى ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، وحسبنا الله
ونعم الوكيل :

قال الله سبحانه : « يا داود انا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم
بين الناس بالحق » الى قوله « يوم الحساب » .

قال سلمان الفارسى - رضى الله عنه :

« أتعلمون من الخليفة ؟ الخليفة هو الذى يقضى بكتاب الله ،
ويشقق على الرعية شفقة الرجل على أهله » .

وقال سبحانه وتعالى : « الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا
الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » .

فمن مكنه الله فى الأرض ، وأتاه الله سلطانا ولم يفعل ما أمر الله
تعالى به فى هذه الآية ، خفنا أن لا يكون من أهلها ، لأن الله تعالى
وصف هذه الأمة - اذا فتح الله تعالى عليهم الأرض ، وأهلك
عدوهم - باقامة الصلاة وايتاء الزكاة وأمر بالمعروف ونهى عن
المنكر .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما من أحد يلي عملا أو نال سلطانا إلا اهتز به الصراط حين يركبه حتى يزول كل عظيم عن حقه ، فان كان محسنا نجا ، وان كان مسيئا هوى سبعين خويفا » .

فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب - صلى الله عنه - قال : « ومن يرغب في العمل بعد هذا ؟ » قال له أبو ذر - صلى الله عنه - : « من سلب الله أنفه ، وأصعر خده » .

وروى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « ما من وال يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم الا حرم الله تعالى عليه الجنة » .

وروى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال للعباس عمه لما قال له : « أمرني على اماره » ، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يا عباس يا عم رسول الله ، نفس تحييها (١٣٤) خير من اماره لا تحصيها ، ان الامارة حسرة وندامة يوم القيامة ، فان استطعت أن لا تكون أميرا فافعل » .

وروى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولدها وهي مسئولة عنهم ، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسئول عنه ، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

ولقد بلغ هذا من نفوس الصحابة والخلفاء الراشدين والأئمة المهتدين مبلغا ذهلت له عقولهم ، وطاشت حلومهم ، فروى أن عمر ابن الخطاب - صلى الله عنه - مر بطريق مكة ، فأبصر راعيا يرعى بمكان جدب ، فناداه : أيا راع ، قد رأيت مكانا هو أخصب من مكانك فالحق به ، ثم قال : « كل راع مسئول عن رعيته » .

وقال علي : « رأيت عمر بن الخطاب يعدو على قتب ، فقلت : « الى أين ؟ » فقال : « بعير من ابل الصدقة قد ند وأنا أطلبه » فقلت :

« أذلت الخلفاء بعدك يا أمير المؤمنين » فقال : « لا تلمنى يا أبا الحسن ، فالذي بعث محمدا بالنبوة لو أن نحلة ذهبت بشاطئ الفرات لأجدن بها حسرة يوم القيامة إلا أنه لا حرمة لوال ضيع المسلمين » .

يا أبا يعقوب ، لقد بليت بأمر لو حملته السماوات لانفطرت ، ولو حملته النجوم لانكدرت ، ولو حملته الأرض والجبال لتزلزلت وتدكدكت ، أنك حملت الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ؛ فزوى أن آدم صلوات الله عليه ، لما استخلفه الله تعالى في الأرض على ذريته ، وما فيها من الأنعام ، وعهد إليه عهدا أمره فيها ونهاه ، فقام فيها بأمر الله سبحانه إلى أن حضرته الوفاة ، فسأل الله - سبحانه - أن يعلمه من يستخلفه ويقلده من الأمانة ما قلده (١) ، فأمر أن يعرض ذلك على السماوات بالشرط الذي أخذ عليه من الثواب أن أطاع ، ومن العقاب أن عصى ، فأبين أن يقبلنه شققا من عقابه ، ثم أمره أن يعرضه على الجبال والأرض فأبينها أيضا ، ثم أمره أن يعرضه على ولده فقبله ولده ، على شرط أن له الثواب أن أطاع والعقاب أن عصى ، فوبخه الله تعالى على مسارعته إلى قبول ذلك ، فقال : وحملها الإنسان أنه كان ظلوما لنفسه ، جهولا بعقابه وما تقلد لربه ، وكان الغرض تخيرا لا ايجابا .

وروى أن عمر بن عبد العزيز لما أفضت إليه الخلافة ، سمعوا في منزله بكاء عاليا فسئل عن البكاء ، فقبل : أن عمر خير جواريه ، وقال : « قد نزل بي أمر شغلنى عنكن ، فمن أحببت أن أعتقها ، أعتقها ، ومن أحببت أن أمسكها لم يكن لها نصيب منى » قال : فبكين ياسا منه ؛ ثم دعا أفاضل المسلمين في زمانه وعلمائهم في وقته : سالم بن عبد الله ، ومحمد بن كعب ، ورجاء بن حيوة ، فقال

(١) الأصل : خلد .

لهم : « انى قد ابتليت بهذا الأمر ، فأشيروا على بها » . فعد الخلافة بلاء ، وأنت ونظراؤك تعدون هذا البلاء نعمة .

فقال له سالم بن عبد الله : « يا أمير المؤمنين ، ان أردت النجاة من عذابها (١٣٥) فصم عن الدنيا ، وليكن افطارك فيها الموت » . وقال محمد بن كعب : « ان أردت النجاة من عذاب الله ، فليكن كبير المسلمين لك أبا ، وأوسطهم عندك أخا وأصغرهم ولدك ، فوقر أباك وارحم أخاك ، وتحنن على ولدك » . وقال له رجاء بن حيوة : « ان أردت النجاة من عذاب الله غدا ، فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، واکره لهم ما تكره لنفسك ، ثم مت متى شئت » .

وانى لأخاف عليك أشد الخوف ، فاتق الله يا أبا يعقوب فى أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - ، فان لك مع الله تعالى موقفا يسألك فيه عنهم شخصا شخصا ، ذكرا وأنثى ، صغيرا وكبيرا ، حرا وعبدا ، ومسلما وذميا ، فأعد لذلك المقام كلاما ، ولذلك السؤال جوابا ، فالذى نفسى بيده ان ذلك لحق مثل ما أنكم تنطقون . روى عبد الله بن عمر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « ما منكم أحد الا ويخلو بربه ، ليس بينه وبينه ترجمان ، ولا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن خمسة : عن عمره فيما أفناه ؟ وعن شبابه فيما أبلاه ؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ؟ وماذا عمل فيما علم » .

واعلم يا أبا يعقوب : فانه لا يزنى فرج فى ولايتك ومدى سلطانك وطول عمرك ، ألا كنت المسئول عنه والمرتهن بجريرته ، وكذلك لا يشرب فيها نقطة مسكر الا وأنت المسئول عنها ، ولا ينتهك فيها عرض امرىء مسلم ، الا وأنت المطالب به ، ولا يتعامل فيها بالربا الا وأنت المأخوذ به ، وكذلك سائر المظالم ؛ وكل حرمة انتهكت من حرمان الله تعالى ، فعهدتها عليك ، لأنك قادر على تغييرها ، فأما ما خفى من ذلك ولم يكن ظاهرا يراه المسلمون فأنت المبرأ منه ان شاء الله تعالى .

ألا ترى الى عمر بن الخطاب كيف أشفق أن يطالبه الله ببعير من ابل الصدقة ، وانما هو البعير للمسلمين ، فركب على بعيره وجعل يطلب بنفسه ، ولا عذر لك عند الله تعالى أن تقول لم يبلغني ، فانك اذا احتجبت عن المسلمين فكيف تعلمه وتراه ؟

قال الله تعالى : « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » ، من تركهم الانكار وانما اقاله لقوم سخط عليهم ، هذا بين الأكفاء والنظراء ، فما ظنك بين الولاة والأمراء .

قال الله سبحانه : « يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يفادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا » .

جاء في التفسير ، الصغيرة : التبسم ، والكبيرة : الضحك .

ولقد بلغني أن عبد الله العمري لما حج لقي هارون الرشيد في الطواف ، فقال : « يا هارون » ، فنظر اليه الرشيد فعرفه ، فقال : « لبيك يا عماء » ، فقال : « كم ترى ها هنا من خلق ؟ » قال : « لا يحصيه الا الله تعالى » . قال : « فاعلم أيها الرجل أن كل واحد منهم يسأل عن خاصة نفسه ، وانت وحدك تسأل عنهم كلهم ، فانظر كيف تكون ؟ » .

فبكى هارون الرشيد بكاء شديدا ، فجعلوا يعطونه منديلا يمسح به دموعه ، قال له : « والله يا هارون ان الرجل ليسرع (1) في مال نفسه فيستحق الحجر عليه ، فكيف بمن يسرع (1) في مال المسلمين ؟ » .

ولما دخل طاوس اليماني على سليمان بن عبد الملك قال :

« يا أمير المؤمنين ، هل تدري من أشد الناس عذابا يوم القيامة ؟ » .

قال سليمان : « قل » .

(1) كذا في الأصل ، ولعلها « ليسرع » .

فقال : « أشد الناس عذابا يوم القيامة من أشركه الله في ملكه ، فجار في حكمه » .

فاستلقى سليمان بن عبد الملك على سريرته (١٣٦) باكيا ، فما زال باكيا حتى قام عنه جلساؤه .

وقال أبو بكر الصديق - رضى الله عنه :

« ان الملك اذا ملك زهده الله في ماله ، ورغبه في مال غيره ، وأشرف فعله الاشفاق من الفقر ، فهو يسخط على القليل ويحسد على الكثير ، حتى اذا قضى الله نحبه ، حاسبه بأشد حسابيه ، وأقل عفوهِ » .

فاحذر يا أبا يعقوب أن ترد على جنة عرضها السموات والأرض ، فلا يكون لك فيها موقف قدم ، أعاذنا الله وإياك من هذا الموقف .

ولقد بلغني يا أبا يعقوب انك احتجبت عن المسلمين بالحجارة والطين ، واتخذت دونهم حجابا ، وأن طالب الحاجة ليظل يومه ببابك فما يلقاك ، كأنك لم تسمع قول الله عز وجل : « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق » ، قال الحسن : « لا والله ، ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تغلق دونه الحجب ، ولا يفدى عليه بالجفان ، ولا يراح عليه بها ، ولكنه كان بارزا ، من أراد أن يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقيه ، وكان يجلس بالأرض ، ويوضع طعامه في الأرض ، ويلبس الغليظ ، ويركب الحمار ، ويردف عليه عبده ، ويلعق أصابعه ، وكان يقول : « من رغب عن سنتي فليس مني » ، قال الحسن : « فما أكثر الراغبين عن سنته التاركين لها » .

وكان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يأخذ درته ، ويمشي في الأسواق ، ويتفقد أمر رعيته ، وكان يمشي ليلا في سكك المدينة مع عبد الرحمن بن عوف وغيره من الصحابة - رضى الله عنهم - ، يحفظون عورات المسلمين . افروى عنه أنه استعمل سعد بن أبي

وقاص على الكوفة ، فبلغه أن سعدا اتخذ قصرا وجعل عليه بابا ، وقال انقطع التصويت ، فأرسل اليه محمد بن مسلمة ، وقال : « آيت سعدا فأحرق عليه بابه » . فأتى الكوفة وأخرج زنده ، واستورى ناره ، ثم أحرق الباب ، فجعل سعد يعتذر ويحلف بالله ما قال ، فقال له محمد بن مسلمة : « تفعل ما أمرتك به وتورى عنك القول » .

يا أبا يعقوب : ولقد بلغنى أنك استأثرت على المسلمين بالحظ الوافر من حطام الدنيا وزخرفها ، فلبست الناعم ، وأكلت اللين ، وتمتعمت بلذاتها وشهواتها ، كأنك لم تسمع قول الله عز وجل : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » ، أولم تسمعه سبحانه يقول لنبيه - صلى الله عليه وسلم - : « ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لفتنهم فيه » .

ولقد روت عائشة - رضى الله عنها - قالت : « لقد كان يمر علينا الشهران والثلاثة ما توقد فى بيوت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نار » . قيل : « فما كان عيشكم ؟ » قالت : « الأسودان : التمر والماء » .

ولقد روى أن فاطمة - رضى الله عنها - قالت : « خبزت رغيفا من شعير ، فجئت منه بكسرة الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فقال : « ما هذا يا فاطمة ؟ » فقلت : « رغيف خبزته يا رسول الله ، ولم تطلب نفسى أن آكله حتى أجيئك بهذه الكسرة » . فقال : « أما انه أول طعام دخل جوف أبك منذ ثلاثة أيام » .

هذا لو شركوك فى خفض العيش لنهيت عنه ، لأن الله تعالى أخذ على الأئمة مثل ما روى عن يوسف - صلى الله عليه وسلم - (١٣٧) أنه كان يأكل الشعير ويطعم عياله الخشكار ، ويطعم المسلمين الحواري ، وكان يجوع نفسه ، فقيل له : « اتجوع ويبيدك خزائن الأرض ؟ » فقال : « أخاف أن أشبع فأنسى الجائعين » .

وروى أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ، لما أفضت إليه الخلافة قال : « انى أنزلت نفسى فى مال الله سبحانه بمنزلة ولى اليتيم ، ان استغنيت استعفت ، وان افتقرت أكلت بالمعروف » .

وروى عنه انه قال « أخبركم بما يحل لى من مال الله سبحانه ، استحل منه حلتى : حلة الشتاء وحلة القيظ ، وما أحج عليه وأعتمر ، وقوتى وقوت عيالى كقوت رجل من قريش لا من أغنيائهم ولا من فقرائهم ، ثم أنا بعد رجل من المسلمين يصيبنى ما أصابهم » .
فكيف والفقراء ببابك يتضاغون ، وذوو الحاجات يترددون وأهل الديون والغرم فى السجون محبوسون مأسورون ، وأموال المسلمين تحت يدك وفى قبضتك ؟ أما سمعت أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « من ترك مالا فلورثته ، ومن ترك كلا فعلينا » ، أما سمعت قول الله تعالى : « انما الصدقات للفقراء والمساكين » . .
الآية الى قوله « الفارمين » .

يا أبا يعقوب ، انه قد كبرت السن ، وانحلت القوى ، واشتعل الرأس شيبا ، وارتحلت الدنيا مدبرة ، وجاءت الآخرة مقبلة ، وحن الفراق ، والتفت الساق بالساق ، وجاءت سكرة الموت بالحق ، فالبدار البدار الى حياة لا موت فيها وشباب لا هرم معه ، وصحة لا سقم فيها . قال الله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون » . . الى قوله : « من فضله » .

يروى عن ابن عباس أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « لما أصيب اخوانكم يوم أحد ، جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتسرح من الجنة حيث شاءت ، وتأوى الى قناديل من ذهب تحت العرش فلما رأوا طيب مقيلهم ومطعمهم ومشربهم ، ورأوا ما أعد الله لهم من الكرامة ، قالوا : « يا ليت قومنا يعلمون بما نحن فيه من النعم ، وما صنع

الله بنا ، كى يرغبوا فى الجهاد ولا يتركوا عنه » . فقال الله تعالى :
 أنا مخبر عنكم ومبلغ اخوانكم ، ففرحوا بذلك واستبشروا ، فأنزل
 الله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ،
 بل أحياء » .. الآية . وقال - جل من قائل - « ان الله اشترى
 من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » الى قوله : « الفوز
 العظيم » . فما ظنك بتجارة ، الله مشتريها يوشك والله أن
 لا تبور .

وقال جل من قائل : « يا ايها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة
 تنجيكم من عذاب اليم ؟ » فلو قطع هنا ، لانقطعت الأعيان فى البحث
 عن هذه التجارة ، لأن الله بفضل وكرمه بين مراده من ذلك فقال :
 « تؤمنون بالله ورسوله » الى قوله « ان كنتم تعلمون » وقال
 رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل
 الصائم القائم لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع » .

وروى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « تكفل
 الله لمن جاهد فى سبيل الله ، لا يخرج من بيته الا الجهاد فى سبيل
 الله وتصديق (١٣٨) كلمته ، أن يدخله الله الجنة أو يرد به الى
 مسكنه الذى خرج منه مع ما نال من اجر أو غنيمة » .

وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لولا أن اشق
 على أمتى لأحببت أن أتخلف عن سرية تخرج فى سبيل الله ، ولكنى
 لا أجد ما أحملهم عليه ، ويشق عليهم أن يتخلفوا بعدى ، والذى
 نفسى بيده لوددت أن اقاتل فى سبيل الله فأقتل ، ثم أحيأ فأقتل ،
 ثم أحيأ فأقتل ، والذى نفسى بيده ، لا يكلم أحد فى سبيل الله ، والله
 أعلم بمن يكلم فى سبيله ، الا جاء يوم القيامة وجرحه يشغب دما ،
 اللون لون الدم ، والريح ريح المسك » .

وقال أنس بن مالك : « أستشهد عمى يوم أحد ، وكان قد غاب
 عن بدر ، فقال : « يا رسول الله ، ان الله اشهدنى قتال المشركين
 ليرينى ما اصنع » ، فلما كان يوم أحد ، قال : انى لأجد ريح الجنة

من دون أحد ، قال فما استطعت يا رسول الله ما أصنع ، فوجدنا
بضعا وثمانين ضربة بالسيف ، أو طعنة بالرمح ، أو رمية بالسيف ،
ومثل به المشركون ، فنزل فيه وفي أمثاله من المؤمنين : « رجال
صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من
ينتظر وما بدلوا تبديلا » .

واعلم يا أبا يعقوب ان الله تعالى فرض الجهاد على كافة
المسلمين ، ولا يرده جور جائر ، ولا فسق فاسق الى أن تقوم
الساعة .

قال الله تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم
الآخر » ، الى قوله « صاغرون » . فلم يرخص لهذه الأمة في ترك
جهاد عدوهم الا باعطاء الجزية أو كلمة الاسلام . وهذه الآية نسخت
كل آية في كتاب الله تعالى تتضمن الاعراض عن المشركين .

وروى أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - ، قال رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - : « ما ترك قوم الجهاد الا عمهم العذاب » ،
فجهاد الكفار فرض عليك فيما يليك من ثغور بلاد الأندلس ، لأنك
أقرب الملوك اليها ، وعندك الكراع والسلاح ولأمة الحرب وآلتها ،
وجيوش المسلمين وحماة البيضة طائعون لك ، وكذلك كل من
بنواحيك وجنبات أعمالك من المجاهدين والمقاتلين أولى البطش
والقوة ، وأنت في حرج من تضييع من في ثغور أرض الأندلس من
جماعة المسلمين والحرم والدرارى ، أفلا تأسيت بمن سافر اليها ،
واقصى المضى من أرض الحجاز من حماة المسلمين ومجاهديهم حتى
استفتحوها ، وبثوا فيها كلمة الاسلام وشهادة التوحيد ؟ فكيف
بمن يناسخها ويجاورها ؟ .

يا أبا يعقوب : اذا أردت الظفر بالعدو فعليك بالعدل في الرعية ،
فقد روى عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أن وفدا من الوفود
قدم عليه بالفتوح ، فقال له عمر : « متى لقيتم عدوكم ؟ » فقال :
« من أول النهار » ، قال : « فمتى انهزموا ؟ » فقال : « من آخر

النهار» . فقال عمر : « انا لله وانا اليه راجعون ، وقام الشرك للايمان من أول النهار حتى اعتدل النهار ، والله ان كان هذا الا عن ذنب أحدثتموه بعدى أو أحدثته بعدكم ، ولقد استعملت بعلى ابن أمية على اليمن ، استنصرلكم بصلاحه » .

وكتب أبو بكر الصديق - رضی الله عنه - الى جنده بالشام ولما يؤتى العشرة الآلاف (١٣٩) وأكثر اذا أتوا من تلقاء الذنوب فاحترسوا من الذنوب .

ومما أتحفك به ، وهو خير لك من طلاع الأرض ذهابا لو أنفقته في سبيل الله ، حديث رواه الأئمة الثقات عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فروى مسلم في كتابه الصحيح ، نقل العدل عن العدل عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « لا تزال طائفة من أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى يأتى أمر الله » . والله أعلم هل أرادكم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - معشر المرابطين ، أو أراد بذلك جملة أهل المغرب وما هم عليه من التمسك بالسنة والجماعة ، وطهارتهم من البدع والأحداث في الدين ، والافتقار لآثار من السلف الصالح رضی الله عنهم . وانا لنرجو أن تكونوا أولى بقية ينهون عن الفساد في الأرض ؛ ولقد كنا في الأرض المقدسة - جبر الله مصابها - تترى علينا أخبارك ، وما قمت فيه من أداء فريضة الله تعالى في جهاد عدوه وأعزاز دينه وكلمته ، وكان من هناك من العلماء والفقهاء وحملة الدين والعباد والزهاد . والمنقطعين الى الله تعالى يدعون الله سبحانه في نصرك وتأييدك والفتح على يدك .

فلئن كنت تستنصر بجنود أهل الأرض ، لقد كنا نستنصر لك بجنود أهل السماء ، حتى قدم علينا الأرض المقدسة الفقيه أبو محمد عبد الله بن العربي وابنه الفقيه الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله ، فذكرنا من سيرتك في جهاد العدو - أهلكه الله تعالى - في تلك الأندية والمحافل والحلق والمجالس ، وصبرك على مكافحة العدو

ومصابرته ، واعزازك للدين وأهله ، والعلم وحملته ، ما زاد المسلمين بصيرة في الدعاء لك وحسن الاعتقاد فيك ، حتى تمنينا أن نجاهد الكفار معك ، ونكثر سواد المسلمين في جملتك .

نسأل الله تعالى الذى يهب الجزيل من فضله أن يهبنا وإياك الشهادة في سبيله ثم اليه سبحانه نضرع أن يريك الحق حقا فتتبعه ، والباطل باطلا فتجتنبه ، فصلاح الرعية بصلاح الراعى . والفقير أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربى ممن صحبنا أعواما يدارس العلم ويمارسه ، بلوناه وخبرناه ، وهو ممن جمع العلم ورعاه ، ثم تحقق به ورعاه ، وناظر فيه وجد حتى فاق أقرانه ونظراه ، ثم رحل الى العراق ، فناظر العلماء ، وصحب الفقهاء ، وجمع من مذاهب العلم عيونها وكتب من حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وروى صحيحه وثابته ، والله تعالى يؤتى الحكمة من يشاء ، وهو وارد عليك بما يسرك ، فاشدد عليه يدك ، واحفظ فيه وفي أمثاله وصية الله سبحانه لنبيه عليه السلام ، قال الله سبحانه وهو أجل القائلين : « واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة ، والحمد لله رب العالمين » .

والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين ، وآله الطيبين الطاهرين ، وسلم ، وشرف وكرم ، وأفضل وأنعم .

(١٤٠) هكذا كانت سيرة العلماء مع الأمراء ، ومنذ عدم الناس

أمثال هؤلاء العلماء أصابهم ما أصابهم .

مراجع الكتاب

(١) المراجع العربية

أدهم (على)

• بعض مؤرخى الاسلام ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك)

• كتاب الصلة ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف)

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ظهر منه حتى الآن

١٢ جزءا ، طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ١٩٢٩ -

• م ١٩٥٦

التنبكى (أحمد بابا)

نيل الابتهاج بتطريز الديباج (على هامش الديباج المذهب

لابن فرحون) ، القاهرة ، ١٣٥١ هـ .

ابن الحاج (أبو عبد الله محمد بن محمد العبدرى)

كتاب المدخل الى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على

بعض البدع والعوائد التى انتحلت وبيان شناعتها وقبحها ،

• ٣ أجزاء ، اسكندرية ١٩٣٤ م .

حاجى خليفة (مصطفى بن عبد الله ، المسمى كاتب چلبى)

• كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون .

الحميرى

صفة جزيرة الأندلس (عن كتاب الروض المطار في خبر الأقطار ، نشر ليثى بروثنسال) ، القاهرة ١٩٣٧ م .

ابن خلدون (عبد الرحمن)

المقدمة ، القاهرة ، ١٣٢٢ هـ .

ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر)

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ٦ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٤٩ م .

ابن خير (أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموى الأشيبلى)

فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف ، جزآن ، سرقسطة ١٨٩٤ - ١٨٩٥ م (وهو المجلد التاسع من المكتبة الأندلسية العربية) ، نشر : فرنسيسكه قداره وخليان رباره طرغوه .

Index librorum de Diversis Scientiarum Ordinibus Zuos a magistris didicit (Abu Bequer Ben Khair : Franciscus Coderza et J. Rebera Tarrago).

الزبيدى (السيد محمد مرتضى)

اتحاف السادة المتقين بشرح أسرار احياء علوم الدين ، ١٠ أجزاء ، القاهرة ١٣١١ هـ .

الزركلى (خير الدين)

الأعلام ، الطبعة الثانية ، ١٠ أجزاء ، القاهرة ١٩٥٤ - ١٩٥٩ م .

السبكي (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين)

طبقات الشافعية الكبرى ، ٦ أجزاء ، القاهرة ١٣٢٤ هـ .

سركيس (يوسف البيان)

- معجم المطبوعات العربية والمعربة ، القاهرة ١٣٤٦ (١٩٢٨) .

السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن)

- بنية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ، القاهرة ١٩١٠ م .
- حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، ١٣٢٧ هـ .

أبو شامة (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل)

- الباعث على انكار البدع والحوادث ، نشر محمد فؤاد منقارة الطرابلسى ، القاهرة ١٩٥٥ م .
- الروضتين فى أخبار الدولتين ، جزآن ، القاهرة ١٢٨٧ هـ .
- الذيل على الروضتين ، القاهرة ١٩٤٧ م .

الشيال (جمال الدين)

- اعلام الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، القاهرة ١٩٦٥ م .
- تاريخ مدينة الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، اسكندرية ١٩٦٧ م .
- تاريخ مصر الاسلامية ، جزآن ، اسكندرية ١٩٦٧ م .

الشيرزى (عبد الرحمن بن نصر)

- المنهج المسلوك فى سياسة الملوك .

الصفدى (صلاح الدين خليل بن أيبك)

- الوافى بالوفيات ، طبع منه أربعة أجزاء باشراف جمعية المستشرقين الألمان ، ١٩٤٩ - ١٩٥٩ م .

الضبى

- بنية الملتبس فى تاريخ رجال أهل الأندلس ، مجريط ١٨٨٤ م .

ابن طباطبا (محمد بن على ، المعروف بابن الطقطقى)

الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، القاهرة
١٩٢٣ م .

الطرطوشى (أبو بكر محمد بن محمد)

الحوادث والبدع ، نشر محمد الطالبى ، تونس ١٩٥٩ م .
سراج الملوك ، القاهرة ١٩٣٥ م .
مختصر الكشف والبيان فى تفسير القرآن (مخطوط
بدار الكتب المصرية) .

ابن عنارى (أبو العباس أحمد)

البيان المغرب فى أخبار المغرب ، تحقيق ليلى بروفتنسال
وكولان ، جزءان ، ليدن ١٩٤٨ - ١٩٥١ ، والجزء الثالث ،
باريس ١٩٣٠ م .

عياض (القاضى)

المدارك .

الغزالى (أبو حامد محمد بن محمد بن محمد)

احياء علوم الدين ، القاهرة ، ١٣١٦ هـ .
التبر المسبوك فى نصيحة الملوك ، القاهرة ١٣١٧ هـ .
المنقذ من الضلال ، القاهرة .

ابن فرحون (برهان الدين ابراهيم بن على بن محمد)

الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب ، القاهرة
١٣٢٩ هـ .

ابن الفرضى

تاريخ العلماء ، القاهرة ١٩٥٤ م .

المالكى (أبو بكر عبد الله بن أبى عبد الله)

رياض النفوس ، نشر حسين مؤنس ، الجزء الاول ،
القاهرة ١٩٥١ م .

مبارك (على)

الخطط التوفيقية الجديدة ، ٢٠ جزء ، بولاق ١٣٠٤ -
١٣٠٦ هـ .

المقرى (أحمد بن محمد التلمسانى)

نسخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، طبعة محمد
محيى الدين عبد الحميد ، ١٠ أجزاء ، القاهرة ١٩٤٩ م .

المقرى (تقى الدين أحمد بن على)

اعتاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفاء (مخطوطة
استانبول) .
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ٤ أجزاء ، مطبعة
النيل بالقاهرة ١٣٢٤ - ١٣٢٦ هـ .

المنبرى (زكى الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوى ابن عبد الله)

التكملة لوفيات النقلة (مخطوطة مكتبة البلدية بالاسكندرية) .

ابن موسى (أبو اسحق إبراهيم اللخمى الشاطبى)

كتاب الاعتصام ، نشر محمد رشيد رضا ، ٣ أجزاء ، القاهرة
١٣٣١ هـ (١٩١٣ م) .

ابن وضاح القرطبي (أبو عبد الله محمد)

كتاب البدع والنهي عنها ، نشر محمد أحمد دهمان ، دمشق
١٣٤٩ هـ (١٩٢٨ م) .

ياقوت (أبو عبد الله بن عبد الله ، الحموي)

معجم الأدباء ، طبعة محمد فريد رفاعي ، ٢٠ جزءا ، القاهرة
١٩٣٦ .

معجم البلدان ، نشر فستنفلد ، ليبزج ١٨٦٦ - ١٨٧١ م .

ب - المراجع الأجنبية

Alarcon (M.)

= Lampara de los Principos por Abubequer de Tortosa (trad. Espan.); Madrid 1930 - 1931

Asin (M.)

= Un Faquih Siciliano Contradictor de Algazbli (Centenario della Nascita de Michele Amari. Estratto. Palermo 1910).

Ben Cheneb (M.)

= Etudes sur les Personnages Mentionnés dans L'Idjaza du Cheikh 'Abd al-Qadir el Fasy, Paris 1907.

Boigues (Paus)

= Historiadores y géografos arabigo - espanoles.

Brockelmann (Carl)

= Geschichte der Arabischer Litteratur (V. I), Supplementband (I).

Dazy (R.)

= Recherches sur l'histoire et la Littérature de l'Espagne durant le moyen-âge, Paris, Leiden 1881, II.

Gayangos

= History of Muhamedan Dynasty in Spain,
London 1840-43.

Palacios (Asin)

= el Islam cristianizado 184 , No I vgl. Z. D.
P. v. XVII, 16

Palancia (Gonzalez)

= Historia de la literatura arabigo-espanola ,
Barcelona 1928.

Quatremère (Et.)

= J. A. (S, t 17. pp. 147-54).

Robles (Guillén)

= Catalogo de los Manuscritos arabes existentes
en la Biblioteca Nacional de Madrid S. « Torruxi ».

المفرد

صفحة

الباب الأول

نشأته الأولى وأسرته

- (أ) دراسته الأولى على أبي الوليد الباجي ٦
(ب) أسرته ٧

الباب الثاني

الطرطوشي في المشرق

- (أ) في مكة ١٤
(ب) في بغداد ١٥
١ - الطرطوشي والمدرسة النظامية في بغداد . . . ١٥
٢ - أساتذة الطرطوشي في بغداد ١٨
٣ - اتجاه الطرطوشي الى التصوف منذ كان في بغداد ٢١
(ج) في الشام ٢٧
١ - في بيت المقدس وجبل لبنان ٢٧
٢ - في أنطاكية ٣١

الباب الثالث

الطرطوشى فى مصر

- ١ - الاسكندرية الرباط و باب المغرب ٣٦
- ٢ - فى مدينة رشيد أولا ٣٩
- ٣ - الطرطوشى يصل الى الاسكندرية اثر محنة سياسية علمية ٤١
- ٤ - موعظة الطرطوشى للوزير الأفضل شاهنشاه . . . ٤٨
- ٥ - الطرطوشى وابن حديد قاضى الاسكندرية ٥٠
- ٦ - الأفضل يحدد اقامة الطرطوشى فى جامع الرصد بالفسطاط ٥٥
- ٧ - الطرطوشى والوزير المأمون البطائعى ٥٧

الباب الرابع

تلاميذ الطرطوشى

- مقدمة ٦٢
- ١ - سنند بن عنان ٦٣
- ٢ - أبو الطاهر بن عوف ٦٥
- ٣ - أبو بكر بن العربى ٦٨
- ٤ - المهدي بن تومرت ٧١

الباب الخامس

٧٤

مؤلفات أبي بكر الطرطوشي

ملحق

نص رسالة أبي بكر الطرطوشي الى السلطان المرابطي

أبي يعقوب يوسف بن تاشفين ١١١

مراجع الكتب

(أ) المراجع العربية ١٢٥

(ب) المراجع غير العربية ١٣١

صدر من سلسلة أعلام العرب

المؤلف	اسم الكتاب
عباس العقاد	١ - محمد عبده
على أدهم	٢ - المعتمد بن عباد
د . زكى نجيب محمود	٣ - جابر بن حيان
د . على عبد الواحد وافي	٤ - عبد الرحمن بن خلدون
د . محمد يوسف موسى	٥ - ابن تيمية
ابراهيم الايبارى	٦ - معاوية
د . محمد أحمد الحفنى	٧ - سيد درويش
د . أحمد بدوى	٨ - عبد القاهر الجرجاني
د . على الحدیدی	٩ - عبد الله النديم
د . ضياء الدين الرئيس	١٠ - عبد الملك بن مروان
أمين الخولى	١١ - مالك
د . عبد اللطيف حمزه	١٢ - القلقشندى
د . أحمد محمد الحوفى	١٣ - الطبرى
د . سعيد عبد الفتاح عاشور	١٤ - الظاهر بيبرس
د . محمد مصطفى حلمى	١٥ - ابن الفارض
د . على حسنى الخربوطلى	١٦ - المختار الثقفى
د . سيدة اسماعيل الكاشف	١٧ - الوليد بن عبد الملك
د . أحمد كمال زكى	١٨ - الأصمعى
صبرى أبو المجد	١٩ - زكريا أحمد
د . ماهر حسن فهمى	٢٠ - قاسم أمين
أحمد الشرباصى	٢١ - شكيب أرسلان
د . عبد الحميد سند الجندى	٢٢ - ابن قتيبة
محمد عجاج الخطيب	٢٣ - أبو هريرة

المؤلف	اسم الكتاب
د . جمال الدين الرمادى	٢٤ - عبد العزيز البشرى
محمد جابر الحينى	٢٥ - الخنساء
د . أحمد فؤاد الاهوانى	٢٦ - الكندى
د . بدوى طبانه	٢٧ - الصاحب بن عباد
د . محمد عبد العزيز مرزوق	٢٨ - الناصر بن فلاوون
أنور الجندى	٢٩ - أحمد زكى
د . سيد حنفى حسنين	٣٠ - حسان بن ثابت
عقيد : محمد فرج	٣١ - المثنى بن حارثة الشيبانى
عبد القادر احمد	٣٢ - مظفر الدين كوكبورى
د . ابراهيم احمد العدوى	٣٣ - رشيد رضا
د . محمود احمد الحفنى	٣٤ - اسحاق الموصلى
د . زكريا ابراهيم	٣٥ - أبو حيان التوحيدى
د . أحمد كمال زكى	٣٦ - ابن المعتز العباسى
د . ماهر حسن فهمى	٣٧ - الزهاوى
د . عائشة عبد الرحمن	٣٨ - أبو العلاء المعرى
د . حسين فوزى التجار	٣٩ - أحمد لطفى السيد
د . فويزة حسين	٤٠ - الجوينى امام الحرمين
د . سعيد عبد الفتاح عاشور	٤١ - صلاح الدين الأيوبى
محمد عبد الفنى حسن	٤٢ - عبد الله فكرى
د . على حسنى الخربوطلى	٤٣ - عبد الله بن الزبير
أنور الجندى	٤٤ - عبد العزيز جاویش
عبد الرؤف مخلوف	٤٥ - ابن رشيد القيروانى
محمود خالد الهجرى	٤٦ - محمد عبد الملك الزيات
محمود غنيم	٤٧ - حنفى ناصف
د . سيدة اسماعيل الكاشف	٤٨ - أحمد بن طولون
أحمد سعيد الدمرداش	٤٩ - محمود حمدى الفلكى
محمد عبد الفنى حسن	٥٠ - أحمد فارس الشدياق
د . على حسنى الخربوطلى	٥١ - المهندى العباسى
د . محمود رزق سليم	٥٢ - الأشرف قانصوه الغورى

المؤلف	اسم الكتاب
د . حسين فوزى النجار	٥٣ - رفاعه الطهطاوى
د . محمود احمد الحفنى	٥٤ - زرياب
د . حسن أحمد محمود	٥٥ - الكندى « المؤرخ »
د . زكريا ابراهيم	٥٦ - ابن حزم الاندلسى
د . بول غليونجى	٥٧ - ابن النفيس
د . سعيد عبد الفتاح عاشور	٥٨ - السيد أحمد البدوى
د . محمد مصطفى هدارة	٥٩ - المأمون
محمد عبد الفنى حسن	٦٠ - القسرى
عبد الرحمن الراقمى	٦١ - جمال الدين الأقسائى
د . أحمد كمال زكى	٦٢ - الجاحظ
د . أنور عبد العليم	٦٣ - ابن ماجه
د . ماهر حسن فهمى	٦٤ - محمد توفيق البكرى
د . على محمد الحديدى	٦٥ - محمود سامى البارودى
على عبد العظيم	٦٦ - ابن زيدون
د . عبد العزيز محمد الشناوى	٦٧ - عمر مكرم
د . ابراهيم أحمد العدوى	٦٨ - موسى بن نصير
د . عبد الحليم محمود	٦٩ - أبو الحسن الشاذلى
د . سيدة اسماعيل كاشف	٧٠ - عبد العزيز بن مروان
د . حسين فوزى النجار	٧١ - على مبارك
د . عبد الحليم محمود	٧٢ - أبو الحسن الشاذلى
د . على حسنى الخربوطلى	٧٣ - العزيز بالله الفاطمى
د . جمال الدين الشيال	٧٤ - أبو بكر الطرطوشى

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر